يحيى حقى

صح النـــوم !

يحيى حقي

صح النوم!

المطبعة النموذجية ٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

الكتاب الأول

الأمس

الكتاب الثانى

اليوم

کتاب اوُول — اوُصی

(١)

أكانت تكون بدعة أو خرافة لو مرّ بنا شريط السكة الحديدية ؟ إن نظرة سريعة من علٍ إلى الخريطـــة توصل بين المدينتين كالخيط بين شقّ رتق واسع ، لا تنعرج إلا بمقدار شعرة لو ألمت بقريتنا الراقدة بين الغيطان .

واشتعلت الأقاويل فى العاصمة تؤكد أن الخط مرسوم عن عمد ، ليخدم أرضا بعيدة عن العمران ، يملكها نائب ذو جاه فى القرية المجاورة ، أما عشيرتنا فقد أدركت أن مروجى هذه الإشاعات هم خصوم النائب ، وابتسمت وتركت بعضهم ينهش لحم بعض . وحمدت الله أن ابتعد عنا الخط ووجع الرأس .

ولكن لابُدّ للمسألة من تفسير ، فقال أبناء قريتنا ، وسترى من قولهم أنهم أهل ظرف وتسامح وطيبة : إن المهندس كان إما حنبليا فرسم الخط بالمسطرة لم تلتفت عينه يمنة أو يسرة ، أو مخمورا فلم تع رأسه المملوءة بالطنين أو الألحان نداء قريتنا إليه : أننا هنا — ياأخى — على بُعد فركة كعب من خطك . وبعض أهل القرية يرجح الفرض الثانى بغمزة عين ، لأنهم هم كذلك من عشاق بنت الكرم ، ولايعذر المتيم إلا متيم مثله .

ولم تغضب القرية لما حـــدث ، فأهلها معروفون أيضا في المقاطعة بسذاجتهم وتوكلهم على خالق الكون مقسم الأرزاق .

فهم لا يحبون كتابة العرائض ، مبرقشة بالأختام وبصمات الأصابع يحرّرها الصراف ، ولا برقيات الاحتجاج يدبجها المعلم الإلزامى بإنشائه البليغ ، ولا اللف على الدواوين بقيادة عمدتنا العجوز وقد تزهق روحه من طلوع السلالم .

ولو أرادوا المشاكسة لما استطاعوا ، فقد مات عنا منذ زمن بعيد وجيه القرية ، الذى يملك أكثر أراضيها ومبانيها وكان هو الذى يدافع عنا ـ أم تراه يدافع عن مصالحه الشخصية ؟ ـ بحيل له كثيرة فللمال سلطان يلتمس له كل المعاذير وتفتح له كافة الأبواب ـ وخلف من ورائه ابنا لا نعرفه ، لأن أباه أرسله منذ الصبا إلى العاصمة لطلب العلم وبقى بهـــا منقطعا عنا ، مكتفيا بأن يرفع إليه الوكيل إيراده كل سنة ، لا نعرف أخباره إلا بالسماع . فثبت لدينا ـ ومن أجل ذلك سامحناه ـ أنه أجتاز المدارس كلها بنجاح باهر لأنه أحب العلم وأوغل فى طلبه ايغالا شديدا ولذلك اصطلحنا على أن نطلق عليه لقب «الاستاذ» وإن كنا لم نره . وسمعنا كذلك أنه كان قد اعتزم القدوم إلينا فشغله شاغل جديد لا نعرفه ، ولكنه هو الذى قيده بالدار فى عزلة من الناس ، فلعله يدرس مشكلة عويصة أو يفكر فى أمور خطيرة .

ورضيت القرية بحرمانها وقال الحلاق : ـ

— ان رؤية القطار على بُعد ميل أبهى بكثير من رؤيته عن قرب ، وبخاصة فى الليل ، حين تنساب انواره فكأنما هو دودة ضخمة رشيقة مضيئة من عجائب صنع الله ، تزيد خلقته جمالا على جمال . وما أكبر الفرق بين صفارة القطار تسمعها عن قرب فتصم أذنيك وتزعجك وبين أن تصل إلى سمعك كأنها نذير من وراء الحجب ، فتهصر ولولتها البعيدة قلبك وأنت راقد فى فراشك تحسب أن الكون قد استلسم لنمط واحد ، فإذا بك تحس فجأة أنه فى تبدل مستمر واجتماع وفراق .

وقال العمدة : —

— لن تزيد الحرائق فى قريتنا ، ولن تزيد بالتالى ضريبة مآدبنا لمعاون البوليس وجند المطافىء إذا هبطوا علينا من المدينة ، ثم أن الله نجانا من نظار المحطات وأكثرهم من أقسى المرابين لأن أصلهم من الفلاحين ، والفلاح لا يدفع شيئا إذا أردفه جاره على ظهر دابته ، ولكن هذا الغُنم المبذول عند أهلهم بالمجان ، يبيعونه هم طول اليوم بثمن عزيز ، والقطار سائر سائر بأمر الحكومة ، ولو كان خاليا ، فما ضرهم لو باعوا هم أيضا القليل العاجل بالكثير الآجل ؟ فتأصلت فيهم موهبة الرياء وهى جزء من مكرهم الأزرق .

وقال المسّاح : —

إن منازل القرية المتداعية ستظل كأخوان الصفا متماسكة بعضها فى حضن بعض لا تزعزعها زلزلة القطار

وقال مُعلم الرسم فى مدرسة القرية : —

— ستبقى جدران بيوتنا بيضاء لا يشوهها الدخان ولا تموت تلك الزهور الجميلة التى تقاسمنا النوافذ فتطل علينا كما نطل عليها ، وإن كنا لا ندرى رأيها فى رائحتنا نحن !

أما أكثرنا سروراً فهو سائق العربة الوحيدة فى القرية ، وهى عربة بحصان فرد ، قد ضمن رزقه وعلف جواده ، بنقله الركاب — وأكثرهم من موظفى الحكومة أو التجار الغرباء — بين القرية والكشك الصغير الذى أقامته المصلحة على الجسر بين القريتين وأسمته « محطة » وإن كان ليس لها رصيف ، لا يقف عليها فى النهار أو الليل إلا قطار واحد فى الذهاب وآخر فى الإياب ، من تلك القطارات التى تسمى « الملطعة » ، ونسميها نحن من باب الفكاهة « بالمستعجلة » .

وتمنى صاحب العربة لو رأى هذا المهندس فربت على كتفه ودعاه إلى نزهة مجانية فى عربته وخصه ، وهو يدير إليه رأسه وجذعه بالتفاته ونظراته وحديثه ، فالجواد خبير بالطريق لا يحتاج إلى سوطه أو (تشك تشك) من لسانه ، وكلاهما فى اللسع واحد لأن الجواد — على تعبه — كريم ذو حياء ، ووجد السائق حديثه المعاد شهيا لأنه يقع على أذن جديدة ، أما حديثه مع الجواد فقد انتهى منذ زمن بعيد ، وفهم كل منهما صاحبه ، وأدرك متاعبه وأسراره وليس فى حياتهما إلا عناء وملل .

وأهل القرية أسرة واحدة كبيرة معروفة بالكسل ، قليل تنقل أفرادها ، ولكن إذا جاء النداء هبت جماعتهم — كما ينطلق سرب الطيور المهاجرة فجأة من على الشجرة — وسافرت لحضور مولد السيد ووفاء النذور ، فلا يضيرهم قطع الطريق إلى المحطة مرة كل عام . ومن بركات السيد أن جاء مولده فى أواخر الربيع حين لا شمس محرقة ، ولا أوحال تنغرز فيها أرجل الناس ، أو قوائم الذبائح ، وإذا سألتنى عن شىء أذكر به هذه المواسم قلت لك أنه خوار هذه الذبائح ، أسمعه عن بعد ، فأحس منه أنها تودع صغارها الوداع الأخير .

وهكذا ظلت قريتنا فى مأمن من فضول الغرباء والمسافرين ، وتطلعهم إلينا ، وما قد يتحفوننا به من البقايا المتناثرة من الطعام والفاكهة ، ومن بقايا أخرى تحرمها تعليمات مصلحة السكة الحديدية إذا وقف القطار فى المحطات ، ولكن أين من يضمن إطاعتها ؟

وأدركت أن مسألة شريط السكة الحديدية قد انتهت وانقطع كل أمل فى مروره بنا ، لما رأيت واعظ القرية يخرج عن صمته حين أقبل يخب فى ثوبه المقلم بالأحمر والأخضر كريش الديك ، حتى أخذ مكانه على يمين العمدة ونحن نشرب الشاى عنده ذات مساء ، تنحنح قليلا ثم قال بصوت جهورى مخاطبا العمدة ، ملتفتا إلينا جميعا : — نعم العمل عملك ! هكذا تكون الحكمة والسياسة وبعد النظر ، كأنك ترى من وراء الغيب . وأن هذه القرية لم تسعد إلا

فى عهدك الزاهر فأنت الذى تدرأ عنها الأخطار والمتاعب ، عهدك كله خير وبركة ، لاحرمنا الله منك ، إننا لولاك لا نساوى شيئا ، أننى أدعو الله فى كل ركعة أن يطيل عمرك ، ويوطد مجدك . .

وهب من مكانه وجرى إلى العمدة وهوى على يده يصر على أن يقبلها ، حتى كاد يندلق كوب الشاى على ثياب العمدة ، وأخذ الواعظ يمسحها بكمه وهى لم تتلوث . . . قائلا . . . استغفر الله . . . استغفر الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله . .

(٢)

وبقيت القرية دنياها . إذا أتى المساء — سواء أكان القمر هلالا أم بدرا — وفرغ الرجال الكادحون من عملهم ، تسلل بعضهم إلى الخان حيث يشربون النبيذ ويلعبون الورق ، ويأكلون من الطعام ما لو قدم إليهم فى منازلهم لاستهانوا به ، ولاموا زوجاتهم عليه أو ازدردوه على مضض ، ولكنهم فى الخان يجدونه لذيذ الطعم شهيا تدور عليه الأحاديث والأسمار والنكت والضحكات، وقد تجردت القلوب من الغمّ والهمّ ، ونجت من مشاكل الدار وحديثها التافه المعاد المملّ ..

ويجوس خلال الموائد صاحب الخـــان . وهو رجل بدين ، خفيف الحركة ، ضخم الرأس ، قصير القامة ، بشوش الوجه ، يعرف الجميع ويناديهم بأسمائهم فعل الصديق بصديقه . وقد سألته مرة كيف اختار هذه المهنة؟ ألأنه ورثها عن أبيه، أم لأنه هو أيضا من عشاق الخمر ؟ وعندنا مثل يقول: « إذا تابت البغي انقلبت قوادة» . فقال لى وهو يضع ذراعه على كتفي :

ــ كنت أحسبك تعرفني ولا تحتاج لهذا السؤال . فأنت ترى أمري مفضوحا لمن له عينان تبصران مثلك — على الأقل فيما أؤمل —

أقول لك أولا إنى لا أحب الهم ولا احمل الهم والحياة خذ وهات ، فإذا أردت أن تَسْعد فعليك أن تُسعد غيرك أولا . والخمر هى للإنسان منذ قديم الزمان أكبر متعة ، فأنا أعيش أبدا فى جو مرح. حقا إن الخمر تبعث بعض الناس على الحزن ، وتسيل من الدموع ما قليله صادق وكثيره كاذب ، ولكنك ترانا هنا أسرة واحدة ، يعرف بعضنا بعضا ، فماتت بيننا تلك النزعة الخبيثة التى تسمى الاعتراف ، وهو داء يصيب بعض السكارى ، إذا وجدوا أنفسهم بين الغرباء .

— هل تمكر بى ؟ أنت تعلم أن المرح يطيل العمر ، فقصدك أن لا ترتخى قبضتك على الدنيا إلا إذا غاصت على مهل آخر قطرة من ماء الحياة فى جسدك ، كما تهز أنت زجاجة الخمر الفارغة لتجود لك بعرق جدرانها . .

— لا يهمنى عدد السنين التى أعيشها ، ولكن يهمنى نوعها . فأنا سأعيش يومى هذا الذى أنا راض به سعيد ماشاء القدر لى أن أعيش ، فلا تستطيع أن تقول عنى إنى سأموت شابا أو شيخا ، فلن أخسر شيئا إذا مت غدا ، ولن أكسب شيئا إذا عشت — كما تقول — مائة سنة أخرى

وصمت صاحب الخان وهو ينظر إلى مبتسما ويقول :

— هل فهمت ؟

— نعم ، ولكنى هذا ما كنت أتوقعه فيك من قبل ، فأنت لم تزدنى علما .

— أرى النتائج عندك سليمة ، ولكن الأسباب باطلة دائماً ، وستعيش طول عمرك حائراً مع أنك على حق . .

— كنت أظن الحلاق فيلسوف القرية فإذا بك أدهى منه . .

— اهزأ بي كما تشاء ، فهذه عادتك التي أرجو لك الشفاء منها لأنها تحمل القلب على الفقر لا الغنى — ولكني سأبرهن لك على صدق نظري ،فأفضي إليك بشيء جديد لم تفهمه من قبل .

وفارقني ليلي طلب أحد روّاد الحان ، ثم عاد وَصب لنفسه كأساً وشربه ، ثم قال وهو يميل عليّ :

— إن هذه المهنة هي التي تجعلني أرى الناس على حقيقتهم ، عراة كما ولدتهم أمهاتهم .

— بعض الناس يظن أن هذا شيء مخيف .

— لا . العكس صحيح . إن أصحاب هذا القول هم أشرار الناس يخشون أن ينكشف الستر فيفتضحوا هم أولا .ولكن خذها عني . إن عاهات النفوس شيء بشع ، لأنها المخلوق الوحيد الذي لا يعيش إلا مختنقاً ، فإذا أتحت له التنفس مات . ونحن نتنفس هنا . . .

ثم هز جسده وطمطم بشفتيه يقلد رعشة المحموم ، وقال :—

— إنني أمقت الكذب والرياء والنفاق والخـــداع ، لا لأنها تصيبني بأذى ، بل لما أراه من أذاها بأصحابها . إنها تمسخ البشر ، وأنا أحب الناس وأريد أن أعاشرهم وهم على الفطرة التي أرادها الله لهم سبحانه . إنني لا أستطيع الحياة إلا في هذا الجو وبهذا الشرط :

انصرفت عنه وأنا أتعجب له ، ورفعت عينيّ إلى تلك اللوحة السوداء التى يخط عليها بالطباشير حساب بعض رواده ، وابتسمت وأنا أرى كيف أنه فى سبيل غرامه بمهنته لا يستعجل بعضهم الدفع وأكثرهم مدين له ، وجلست مع حلقة من الأصدقاء حول إحدى الموائد، ولكن ذهنى كان لا يزال يفكر فى هذا الرجل البدين ذى الذراعين الغليظين

* * *

بعد أن ينصرف الرواد — وآخرهم لا ينصرف إلا بشىء من الزجر أو الدفع الرقيق — يقفل صاحب الحان أبوابه ويتكىء بذراعيه على النصب الذى يقف من ورائه ليصب الخمر لمن يحب الشرب وقوفا — وهذا الحب يبعثه ثلاثة ، فرط الصبا ، والقلق ، واليأس — ثم يشعل لفافة تبغ يدخنها على مهل فلا تدرى من حركات شدقيه أهو يشد الدخان أم يحدث نفسه ؟ . وتحول نظرته بين الموائد والمقاعد الخالية ، ويبتسم مرة يمنة ، ومرة يسرة ، ثم يتثاءب وينفض ثيابه بأظافره ، ويطفىء الأنوار وهو يفتح بابا صغيرا ، من ورائه سلم يؤدى إلى مسكنه فى الطابق الأعلى ، فيجد السلم مضاء ، فيصعده على مهل ، متعمدا أن تحدث أقدامه ضجة خفيفة لينبه زوجه أنه قادم . وما هى بحاجة إلى هذا التنبيه ، فسيجدها كما وجدها كل ليلة « فى الردهة » تنتظره ، قد أعدت له الطست والأبريق

وملابس نوم نظيفة ، ومع ذلك يجد صاحبنا لذة كبيرة فى أن تحدث أقدامه هذه الضجة ، لأنه يراها مبدأ حديث الليل بينهما . وترضى نفسه إذا شعرت أنه هو الذى طلبها فجاءت له ، كما تنادى قطتك الأليفة . ولكن أى حديث ؟ إنها امرأة نحيفة بقدر ما هو بدين ، لا تتكلم كثيرا ، وقد لا ترد على الجملة أو الجملتين إلا بكلمة أو كلمتين ، ولكن نغمة كلامها القليل تنزل على قلبه برداً وسلاما ، ففيها تدليل وزجر ، وحث على الجد وترحيب مستتر بالهزل ، ورضى بالواقع ، وأمل فى قادم أفضـــل وغفران للماضى . فيها الأمر والطاعة ، والإغراء والصد ، والطهر والنزوة معا . . تظهر له التجلد على مشاق الحياة ، حتى إذا أحست أن إعزازه لها قد يصبح إعجاباً خالصاً أو اعترافاً بالجميل ، أبدت له من الضعف والتعب شيئاً قليلا لا ينوء بهمّه ، فإذا رأته يحنو عليها أنكرت من جديد ضعفها وتعبها - كل هذا متضمن فى نغمة كلامها القليل المتقطع ، من يقول إن الكلام منبعث من أوتار الحنجرة كاذب وإن كان له سند من العلم إن هذه الأوتار موطنها القلب ذاته . هى امرأة قانتة لا تترك فرضها . تكره التعرى حتى لزوجها ، فإن لها حياء الناقة الأنوف ، فإذا بهذا الرجل البدين يقف بين يديها موقف الطفل الصغير . ولا تزال به حتى تدفعه إلى الفراش وتتضاءل بين ذراعيه وهى التى تضمه ضمة الأم لابنها ، لم يرزقهما الله بولد . فلا عجب إن كان نداؤه لها : يا أماه !

هى ليست من قريتنا ، وكان صاحب الخان قد سافر للعاصمة

ليشترى نبيذه ، وعاد لنا بشيئين جديدين : هذه المرأة النحيلة وجرح غليظ فى جبهته ، لم يشأ أن يكشف لأحد عن سره أو سرها ، وعاشت بيننا فى عزلة عنا ، شأن الغريبة لا تزور ولا تزار . كأن زوجها هو عالمها الذى اكتفت به حياتها فلا تطالب فوقه مزيداً ـ لذلك كرهتها نساء القرية، وقلن مؤكدات إنه التقطها من أزقة البغاء أو من إصلاحية النساء ، بل قلن أيضاً إن أحداً لا يعرف هل تعاشره فى الحلال أو فى الحرام . . . إذا طلع النهار هبطت إلى الخان فكنسته ومسحته ورتبت من جديد موائده ، وأعدت نتف الطعام الذى سيجده رواد الخان شهياً لذيذاً ، ثم إذا سمعت وقع أقدام زوجها حين يستيقظ من نومه مع الظهر ، صعدت إليه وغابت فى محرابها .

ونساء القرية يظهرن السخط أيضا على صاحب الخان نفسه فيزعمن أنه هو الذى ينتزع منهن أزواجهن وما فى جيوبهم من نقود قليلة هن وأولادهن أحق بها . وبالرغم من هذا السخط فإن حوادث الطلاق والنشوز والنفقة أقل فى قريتنا من بقية القرى المجاورة . فالخان عندنا هو الذى يفصل النساء عن الرجال فترة من الزمن، تعتدل فيها النفوس وتنسى المشاحنات، ويعود الرجل لداره وهو أشد شوقا لزوجه وحنانا لها ، وفهما لضعفها الذى تغطيه بكساء من الجبروت . والمرأة يلذ لها ويسعدها بدافع من عاطفة الأمومة أن تبكت زوجها بين الحين والآخر، وأن توقفه — وإن كان بطلا ! —

بين يديها موقف الطفل المذنب الذى يؤنب ويوبخ ،حتى إذا غضب امتدت له الأيدى المشفقة والأذرع المحبة، وقال له القلب : إنت قطعة منى، كيف أجفوك؟ ولكنى لا أزعم أننا أكثر سعادة من غيرنا، أو أننا لانعرف المتاعب والمشاكل والمآسى ، فالحياة أينما كانت لاتخلو منها ، وإنما أقول إن منوال معيشتنا قد جمعنا له الخيوط من محيطنا وظروفنا ونسجناها ثوبا مفصلا على قدنا ،ولو لبسه آخر فلعله يضيق به ذرعا . فاختلاف السعادة التى توهب للبشر هو فى النوع لا فى المقدار . وكلما تأملت هذا القول وجدت فيه عزاء كبيرا .

(٣)

يتزعم قصاب القرية — وهو يعد من أغنيائها — حلقة من أصدقاء يلازمونه ليلة بعد أخرى ، وأنا أحب صحبة هذا الرجل ، لأن مائدته أقلّ الموائد ضجة وثرثرة، ولأنني أشعر إذا جلست إليه كأنني أفلت من طريق ضيق يعج بالناس والدواب في رهج الشمس إلى حديقة صغيرة ملتفة الأغصان تقول لي زقزقة عصافيرها : لم الضجة ؟ وفيم الجدال ؟ لمائدة القصاب جو خاص بها يسحرني بمتناقضاته : هو في النهار ينطق بالقسوة والتجهم، تهبط يده بالساطور على اللحم والعظام كأنه تمثال مجسم لشيطان الهدم المكلف بتمزيق الحياة والتهامها ، أو كأنه يضرب عدوا لئيما له عنده ثأر قديم شديد الجرح ، تتلوث يداه وملابسه بالدم ، وقد يلطخ به جبينه حينما يمسح عرقه ، وتحسب أن أنفه وعينه تجدان في هذا الدم لذة مشبعة . مشيته الوئيدة تنقلب — وهو يحمل الذبيحة من العربة إلى الدكان — إلى أسراع الكلب المتسلل بعظمة مسروقة ، تزيغ عيناه وترميان بالشرر ، لو اقترب منه إنسان لكشر له عن إنيابه وزمجر في وجهه كالوحش . ولكن كل هذا طلاء كاذب ، هو من أثر المهنة ، ولكل مهنة قناع يخفي وجه صاحبها — فهذا الرجل نفسه حين أقابله

بالليل أجده كالطفل الوديع وألمس فيه طيبة متما سكة ثابتة الجذور وهدوءا يستل أنياب ألف سؤال باقية بغير جواب ، وتسليما كأنه قبلة ندية تخرس صرخة النفس فى يأسها من بلوغ الجمال والحق الهاربين أبدا ، كأنه يقول لك : هذه هى الحياة ، خذها كما تأتى ، إياك أن تظلم أو تؤذى أحدا ، وإياك أن يرهقك الجود وإن اتهمك الناس بالسفه أو الغفلة والضعف .

وفى حياة القصاب مأساة أليمة ، لعلها هى أيضا مما يجذبنى إليه . يتحدث عنها أهل القرية سرا . بعضهم يعلم بها ولا يتتبع أخبارها ، تاركا الرجل لحظه ، لا يحكم عليه بشر أو بخير . وبعضهم يتشمم أنباءها — ساخرا من الرجل القوى كيف يستخذى ومن القصاب يصبح خروفا . . وبعضهم — وهم قلة — تزيدهم هذه المأساة محبة للرجل وإعزازا ، والعجيب أن نساء القرية — وإن لم يجهرن برأيهن — هن من هذا النفر الأخير .

بدأت هذه المأساة يوم أن هبط قريتنا منذ عشر سنوات سيرك متنقل ونصب خيامه على الجسر ، لم يمكث بيننا إلا ثلاثة أيام ، ثم رحل ورحلت معه — يا للفضيحة — الفتاة السمراء التى كانت القرية كلها تحبها ، وتتوقع لها أن تتزوج من ابن عمها القصاب الثرى ، تحبها القرية لأنها فتاة جميلة ساذجة جريئة معا ، خفيفة الظل ، ولأنها فوق ذلك يتيمة . أبوها تاجر ميسور الحال عضته أزمة أعقاب الحرب بأنيابها ، فأفلس ومات مقهوراً ، وترك زوجه

وابنته فى فاقة ، فتقدم القصاب وتولى العناية بهما والانفاق عليهما ورعايتهما . وقال بعض الناس إنه يفعل ذلك لا لوجه الله بل لأنه يحب الفتاة السمراء من كل قلبه ويرجو أن يتزوجها . وظل صابرا لا يتعجل الأم أو الفتاة . فالفتاة لا تزال فى ميعة الصبا ، وهو يريد أن تتجلى الرغبة من جانبها هى أولا ، حتى لا يكون رضاؤها مفروضا عليها ، أو استجابة لواجب الوفاء بالجميل فالحب أنانى عنيد مخلوع العذار ، وجوهر صاف لا يمتزج بغيره .

وذهبت الفتاة مع أمها للسيرك أول ليلة ، تكاد تطير من الفرح ، فلا تعرف قريتنا من الملاهى شيئا كثيرا ، وجلست مشدودة الأعصاب مشرئبة العنق جائعة النظرة تلتهم كل ما تراه وتضحك ملء شدقيها كالأطفال . ومر أمامها على نغم نفير وطبلة نقر تعزف أدواراً قديمة ـ مخاطر البهلوان ورقص الخيل وألاعيب الكلاب المدربة ، وهذا العراك الفكه بين حمار وصاحبه حتى أوقع الحمار صاحبه على الأرض ، وهو فصل مضحك لا تراه إلا فى سيرك الأرياف . ثم خرج فتى متوسط القامة ، ضخم كأنه كرة منتفخة ، يلبس طرطورا ، قد لطخ وجهه بمسحوق أبيض . هذا هو المهرج ، يُصفع ويركل ويصب عليه الماء وهو يضحك ويقفز ، ويقع ويقوم ، والناس ترثى لحاله وتضحك معا ودار الفتى على المتفرجين يعابث هذا الصبى ويخيف آخر ، حتى وقف أمامها ، واقترب وجهه من وجهها ، فرأت ما بقى من شفتيه من سطر أحمر بدا لها فى لون الدم ، وأمسك

بضفيرتها اليمنى وجذبهامن وراءظهرها، وأنزلها على كتفها فوق صدرها ، ثم ثبتت نظرته على عينيها لحظة قصيرة وانصرف عنها إلى غيرها. ضاقت ذرعا بهذا العبث أول الأمر ،واحمر وجهها خجلا إذ لم تعتد أن تمتد يد غريبة لشعرها — ويحدث هذا أمام الناس أيضاً !! ثم أحست فى جسدها رعشةباردة لم تفهم سببها. هذا الوجه الذى اختنق تحت طلائه ، لم يبق فيه أمامها إلا عينان واسعتان سوداوان عميقتان مضيئتان، تخفيان تحت نقاب من البله الكاذب شعلة متأججة بالبهجة والجذل وحب الحياة . نفذت هذه النظرة إلى قلبها فأحست أن حياتها كلها قد انقلبت فجأة من لون أبكم حائل لا سحر له ولا طعم — يعيش فيه جسدها وروحها معيشة الطفيليات العمى لا تدرى من أمرها ولا من أمر ما حولها شيئا — إلى لون ناطق متوهج ذابت فيه تلك الطفيليات وأصبحت الحياة والبهجة ، والجسد والروح ، شيئا واحداً وكيانا متحداً لا ينفصل فيه عنصر عن آخر.

وفى اليوم التالى رأته عند الظهيرة يشق السوق ليشترى من البقال جيناوزيتونا هو كل طعام غدائه . فوجدته فتى نحيلا شاحب الوجه ، يسير متمهلا قد كسر نظرته إلى الأرض من الحياء ، كل مافيه ينطق بأن جذله يتضاعف لو وجد شريكا يقاسمه هذا الجذل. أما إذا ترك لنفسه، فسيخبو الضوء من قلبه ، وسيهبط سلم الحياة والصحة درجة درجة، حتى تذيبه الفاقة ويتلفه المرض .

لم يذهب للسيرك فى الليلة الثانية من ذهب إليه فى الليلة الأولى.

فلسنا من الأغنياء ، ولا يقدم السيرك إلا برنامجاً واحداً يتكرر كل ليلة ، ولكن الفتاة السمراء ألحت على أمها حتى صحبتها للسيرك مرة ثانية وقف المهرج أمامها أيضاً ، وأمسك بضفيرتها اليسرى. وجذبها من وراء ظهرها ، وأنزلها على كتفها فوق صدرها . وقالت لها عيناه الضاحكتان « كيف أمسيت ، وكيف أصبحت » ؟ لا يذكر من المتفرجين إلا هذا الوجه الصبوح الأسمر الذى ينم لونه عن الصحة ، صحة الجسم والروح معاً . هل يبقى فى الحياة غم لمن يصبح ويمسى على رؤية هذا الوجه الجميل ؟ هى فتاة كالزهور البرية تحتاج إلى الشمس والهواء ، لا أن تبقى حبيسة فى وعاء بين الجدران.

وفى الليلة الثالثة كانت الفتاة فى مقعدها ، وجلست الأم مقطبة الجبين، لا تحب إسراف ابنتها فى إنفاق المال وهو عزيز . وتغش نفسها بأن هذه هو سبب استيائها من نزق ابنتها ، على حين أن قلبها تصهره مخاوف وشكوك أخرى، هى أشد خطرا من الإسراف ، ثم الويل لها من ألسنة النـاس .

ودار المهرج دورته ووقف أمام الفتاة السمراء ، وأمسك هذه المرة بضفيرتيها معا ، وربط إحداهما بالأخرى على صدرها فى عقدة جمعت التوأمين المفترقين ، وتمت بها دورة الكهرباء . . عقدة على ضعفها لا انفصام لها . .

وأخذت الفتاة تحدث نفسها وهى تأوى إلى فراشها . . ما أجمل صحبة مثل هذا الرفيق ! ترى معه بلاد القطر كله ، من شماله إلى

جنوبه ، وتجوب طرقاته ، وتسمع كل أصواته ، لا يكربها ضيق بمكان حتى تشد الرحال إلى مكان غيره . لو ظلت فى القرية لما بقى لها مفر من أن تستجيب لرغبة الجميع ، وتتزوج ابن عمها القصاب، وهو رجل طيب أمير ، ولكن قلبها لا يميل إليه ، وهى لا تحب رائحة الدم واللحم والعظام . ولو لم تتزوجه لسلقتها القرية بألسنة حداد، وحكموا عليها بأنها ناكرة للجميل، ولم تنس القرية بعد كيف نشأت منذ صغرها فتاة شاذة ، لا تحب اللعب مع الفتيات ، بل مع الفتيان ، تتسلق معهم الأشجار ، وتجرى فى الغيطان وراء الضفادع والزنابير . . .

ولما رحل السيرك رحلت الفتاة السمراء معه، وكانت فضيحة كبيرة فى القرية ، لم يخفف من وقعها إلا ما علمناه بعد ذلك من أن الفتى عقد عليها فى القرية المجاورة، وما بلغنا من أنه سليل أسرة طيبة أخنى عليها الدهر ، وأنه يعاملها معاملة حسنة كريمة .

أما الأم فقد اختفت عن الأنظار وركبها المرض ، ولم تلبث أن فارقت هذه الحياة وهى تنعى حظها وتتحسر على ابنتها ، وتدعو لها بالسلامة .

ومرت أعوام . . .

وذات صباح ذهب السائق كعادته بعربته الفرد إلى المحطة ينتظر رزقه ، فإذا بالفتاة السمراء تهبط من القطار ومعها ولدان وبنت ، ووقفت مرتبكة تتلفت يمنة ويسرة . . ترك بقية الركاب

وجرى إليها مسلما مرحبا ، فكادت تهم بذراعيها تطوق بهما رقبته وتقبله ثم ، بكت وهى تقول : —

ماتت أمى ، ومات زوجى ، وفى رقبتى هؤلاء الأيتام ، ولا أدرى ماذا أفعل ؟ ولا أين أذهب ؟

قال لها وهو مبتسم

— البلد بلدك والدنيا بخير ، تعالى ، أنا أعرف إلى أين أقودك.

— ابن عمى ؟ وهل يقبلنى ؟

— ستفسدين كل شىء إذا طلبت منه المغفرة . فإن هذا سيفتح جراحه من جديد . ادخلى عليه كما يدخل المسافر العزيز يؤوب من رحلة طويلة ، وفى يده هدية .

— أى هدية ؟ وأنت ترى ثيابى الرثة ، وهذا القفص وهذه الربطة هى كل مابقى لى من حطام الدنيا .

— وهل هناك هدية أغلى من ثلاثة أيتام ؟ إن نبينا نشأ يتيما ، ولا أعرف كتابا سماويا مثل كتابنا تحدث عن الأيتام وحض على الرفق بهم ، وابن عمك رجل طيب أمير ، وانت تعرفين

وهز رأسه وخفت بهجته حينما سمعها تجيبه : —

— من أجل أيتامى خذنى إليه .

وعلمت القرية كلها أن المهرج مات فى بلد قفر قصى ، نزله السيرك مع وباء خبيث استشرى به ، حصد الأرواح وخرب البيوت ، وضاعت مناحتها على زوجها وسط مناحة عامة . ورجعت

هى القهقرى ، وحيدة لا رفيق لها ، لأن فتاها المتنقل من بلد إلى بلد قد حط رحاله فى مقابر الغرباء .

ولما دقت الباب وخرج لها القصاب . ورآها لم يزد عن أن يقول لها : —

— أهلا وسهلا ومرحبا بك وبأولادك .

واستأذنها فى الخروج ليدعو لها بعض نساء الأسرة ولكنها قالت وهى تميل وجهها نحو أولادها :

— لِمَ إزعاجهن ؟ وأنا لا أريد أن أرى الآن أحداً . تفعل خيراً لو عدت بالمأذون وحده ، إن شئت بقائى معك .

وأخيراً رضيت ، وكان الرضا من جانبها .

وقال بعض رجال القرية : كان ينبغى أن يطردها ، أو أن يشير عليها بأن تتزوج هذه المرة بهلواناً ! وقالت نساء القرية : مسكينة ! بختها مائل ، وهى بنت حلال . وأكبرن فى القصاب كرمه وتسامحه ، وإن علمن أنه الحب .

وبدأت القرية تنساها ، ثم أخذت الاشاعات تهمس بأن الفتاة السمراء من طينة لا تنفع فيها التجارب ، ولا يأسرها الكرم والتسامح . لبست أحسن الثياب ، وأصاب أولادها من أطيب طعام ومع ذلك ظلت ساهمة النظرة ، منطوية على نفسها ، لا تأبه لما يدور حولها .

وذهبت فى يوم مع صحبته من أترابها إلى مطحن القرية لتطحن

قمحها ، وجلست فى ركن منعزل ، وتحمضت زميلاتها وهن يتدافعن ويتسابقن حول صبى الطحان، لا تسمع من مكانها إلا الضحك ونقاشا كله عبث ومرح ، وفى طريق العودة إلى الدار سمعت من رفيقاتها أن هذا الفتى غريب عن القرية ، وأنه يتيم ، وأن يومه ينقضى فى هذا المطحن ، فهو يعمل فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ، ثم يسوقه الإعياء إلى حجرة صغيرة خلف المطحن تطل على المقبرة ، فينام فيها كالقتيل ، حتى يوقظه وقاد المطحن بأول صفارة مع الفجر . فلم يبق له وقت يتوجع فيه أو يشكو . .

وفى المرة الثانية جلست فى مكانها القصى ، ولكنها مدت أذنها إلى ضحكات أترابها وابتسمت قليلا

وجدت أعصابها شيئا من الهدوء فى المطحن ، بالرغم من ضجة الآلة وثرثرة النساء ، وهذه الذرات البيض تكسو الأهداب فتصبح كأهداب عدو الشمس ، وتنفذ من الأنف إلى الحلق . تملأ الجو فيخيل لها أنها ترى من وراء ستار من الموصلى — وهكذا ستر الغيب للأنفس المتشوقة — منظراً من الحياة كيف تكون فى كوكب آخر . ولعل سبب هدوئها هو سحر الدقيق الطازج ، تمد فيه اليد فتحس بحياة غنية كريمة ، فيها الدفء والندى معا وكأنها تصافح مخلوقاً له براءة البكر ، هشاً قد خلع درعه وإن أوحى عريه فى الوقت ذاته بقوة وجد تليد ، وللدقيق الطازج رائحة تجمع بين تنفس بننا

ومخاض الطين ، وبين عطر الخبز الطازج الخارج لتوه من الفرن وهو من أرق العطور . هذه الرائحة تزد الفتاة للحياة ببهاء فجرها الأول قبل أن يطلع الاثم والدنس ، وتمثل العمل والكدح فى الهواء الطاق بعيداً عن الوشايات والأشاعات .

وفى المرة الثالثة ، حينما أرادت أن تحمل قفتها ، رأت يدين تمتدان لمساعدتها على وضعها فوق رأسها ، فرفعت وجهها فإذا بها أمام وجه ملطخ بالدقيق ، يلبس صاحبه طاقية على هيئة الطرطور صنعت من قماش أكياس الدقيق .

رقدت ليلتها ساهرة تتقلب على الجنبين ، وإذا غفت قطعت نومها أحلام ملأى بالأشباح والأصوات ، كأن عالما آخر يتخطفها من دنياها . . وجاءها زوجها ، فأبت عليه معتذرة بأنها مريضة . وكان لابد لها أن تصدق ، فاستسلمت للفراش أياما غير قليلة ، فى آذانها طنين لا تعرف سببه ، ثم حين جاء موعد الطحن هبت من فراشها سليمة نشطة ، وإن ظلت ذاهلة النظرة متلعثمة النطق .

قدمها صبي الطحان على أترابها ، وأخذت تنظر إليه وتفحصه . شاب نحيل مطبّق كأنما مر هو أيضاً بشق الطاحون . وجه طويل مُجهد صابر وجبهة مرتفعة ، وشعر كله حلقات صغيرة مصفرة الأطراف ، وأذنان كبيرتان كأذنى القفة . هو صموت لا يتكلم إلا نادراً وبألفاظ قليلة ، جسده متصاب الحركات ، يمشى زحفاً ثم ينحنى فكأنما تهوى رأسه من كبر مفاجيء وسط ظهره ، ثم يلوى

رقبته وهو منكفيء ثابت الجذع ، يتلفت للنسوة شمالا ويمينا بنصف وجهه، فلا يبقى إلا القليل حتى تنخلع رأسه من جسده، وماهو كذلك على هذه المبالغة، ولكنها هكذا رأته ، فانجذب قلبها إليه ، وملآه عطف شديد متدفق ، وتملكتها رغبة لا تقاوم فى أن تضمه بين ذراعيها لتلين حركته وينطلق لسانه . .

وزعمت الاشاعات بعد ذلك أنها تقابل صبى الطحان بالليل فى غفلة من زوجها ، وأنها لا تتركه إلا إذا أكل كل ما تحمله له من طعام وفاكهة وحلوى ، وأن الأشباح التى أصبحت تجوس خلال المقبرة تحت جنح الظلام وتتحدث فى همس ،ليست من عالم الجن كما يظن بعض السكارى العائدين لبيوتهم ، وزعمت ألسنة أخرى أن بعض نساء القرية يتطوعن لتيسير هذا اللقاء ، والتستر عليه ، ولا أستغرب ذلك على نساء قريتنا ، فهن فى حاجة إلى سر يستعلين به على الرجال ، وتستهويهن المخاطرة ، وهذه الحيرة اللذيذة بين لا ونعم . ولأن هذه الفتاة قد وهبها الله سحراً يجعلها محببة للقلوب مهما فعلت ، وكما تختار الأسرة ولداً من أولادها تكيل عليه كل حنانها وتدليلها ، فكذلك اختارت قريتنا هذه الفتاة لتغفر لها كل ذنب . ليس هناك دليل واحد على أن علاقتها بصبى الطحان قد جاوزت حد اللقاء البريء ، وحدب كحدب العجائز على القطط المشردة ، إلى ما يأباه الدين والشرف

ومع ذلك لا يصدق أحد أنهما يبقيان طاهرى الذيل إذا ضمهما

الليل تحت جناحه وحجبهما عن العالم والناس . والله أعلم بما يجرى بينهما ، وماذا تقول له ويقول لها ! ولعل حيرة الحائرين تزداد لو رأوها وهى تأوى إلى فراشها بعد أن يتعشى أولادها وينامون ، براقة العينين ذابلة الشفتين ، خاشعة متوسلة : يارب ! أنت الذى خلقت القلب ، فأنت إذن من يهبه ، وإلا كيف تبوء كل مقاومة بالاخفاق ؟ وأى شىء يجذبنى غير أمرك وقدرك ؟ ولكن لماذا حين تخلق الحب لاتزد الناس بصراً وفهما؟ ولاتزيل ما على عيونهم من غشاوة ومافى نفوسهم من قسوة وجحود ؟ لماذا خلقت حبا يخيب الآمال ويذيق العذاب أرواحا كريمة ينبغى لها أن لاتتعذب؟ كيف يكون — وهو نور وحنان — قوة محطمة مدمرة ؟ تمزجه أحيانا بالحيرة بين واجب وواجب ، وكلاهما أنت فارضه . . من أخون ؟ قلبى أم أولادى؟ لا.لن أخون هذا ولاأولئك فارحمنى واغفر لى واستر على . .

أما القصاب فقد بلغته هذه الإشاعات فسكت عنها ، وأبت كرامته أن يتجسس عليها ، ولما أصابه مرض خفيف تعلل به ونقل مكان نومه من جوار زوجه إلى حجرة أخرى ، وبقى بها بعد شفائه ماذا يفعل ؟ هل يطردها ؟ إنه يحبها . وحتى لو لم يحبها فأين تذهب بأطفالها ؟ أيتركهم مشردين بعد أن وجدوا الأمان تحت سقف بيته . هى زوجه وبنت عمه ، فكيف يسترها الناس إذا فضحها هو ؟ ولو أن الأشاعات ذكرت رجلا ميسور الحال يستطيع الإنفاق

عليها وعلى أولادها ، لسرحها بإحسان . ولكن صبي الطحان لا يكاد يبلغ قوت يومه إلا بشق النفس . لعلها نزوة عابرة لا تلبث أن تزول ، وتستفيق الفتاة وترى من أى معدن هو . إذاً فلتبق ، كضيف عزيز .. تركها لخالقها هو بها أعلم وأرحم ، فليقل الناس عنه ما يقولون ، وليسخروا به ما يشاؤون ، يطلبون الرحمة ولا يرحمون ، تباً لهم .

وأخذ القصاب يمضى لياليه فى الحان ، مع زمرة من أصدقاء له مخلصين ، لا يجرؤ أحد أن يفاتحه فى شأن هذه الأشاعات ، ولا يشك أحد أنه عالم بها . ويظل هو — والأنظار تتخاطفه — هادىء النفس ، مبتسم الثغر ، غافراً ، مؤجلا الحساب ليوم الحساب بين يدى المنتقم الجبار ، الرحيم الرحمن ..

(٤)

قطع تأملاتى صوت عال استبد به السكر ، يرتفع قرب المنصة

— كوب من الجعة على حسابى للجميع ! هـــذا يوم مفترج وفرصة قد لا تعوض .

أثار هذا الكرم المخمور ابتسامنا جميعاً ، وظل الكثيرون منا سادرين فى أحاديثهم وشرابهم لا يأبهون لما سمعوا ولا يلتفتون نحو قائله ، فكلنا نعرفه ، وهذا شىء قد ألفناه منه مرة كل شهرين أو ثلاثة ، ونعرف أيضاً كيف تبدأ الواقعة وكيف تنتهى دائماً ، لم يمض وقت قليل حتى انقلبت الابتسامات إلى مرح شامل ، والتفت الجميع نحو النصب ليضحكوا من منظر رجل قصير القامة ، يكاد يكون قزما ، يلوح بيديه ويشد صاحب الخان من كمه ويتشبث ببعض الرواد المعترضين على إسرافه الراغبين عن انتهاز فرصة سكره واستغلال كرمه وهو يجذبهم نحو النصب جذباً عنيفاً عنده هيناً عندهم ، يحلف عليهم بأغلظ الإيمان أن يشربوا ، ثم يلتفت للحاضرين جميعاً يهددهم أنهم لو عصوه فلن يروه معهم مرة أخرى — ونفهم من هذا التهديد كم يحبنا هذا الرجل ، فعنده أن القطيعة بيننا هى من أكبر الدواهى عليه وعلينا معاً ، أخذ بعض الواقفين

حوله يلينون له قليلا ويربتون على كتفه ، لا تغضب ، هدىء روعك . . . قد فهموا أنه يفسر التأبى والتمنع بأنهم يرونه لقصر قامته وحدة طبعه طفلا لا يؤخذ مأخذ الجد ، ليس لهم كفؤا ، وإن عصيان أمره نوع من الحجر عليه ، وأنه يخشى أن تفضح نظراتهم بما يدور فى خلدهم :

يا أخى ! ليست هذه النقود نقودك حتى تبعثرها هكذا !

وحين يرى إن لينهم له لا يقودهم بعد النصب يربد وجهه غضباً أو حياء ، أهذا جزاؤه وهو يفتح لهم كل ليلة مغاليق قلبه ، ويحدثهم عن أدق أسراره ، ويخلطهم بروحه .

زال غضبه سريعاً ووقف حائراً قد ركبه يأس شديد وغم ، فلم يقو أحدٌ مناعلى تركه فى هذا العذاب الممض ورددناه من جديد إلى المرح ونحن نشرب كوب الجعة على حسابه ولكنه لا يستجيب للمرح بسهولة ، ألم يكن الأولى بنا أن نذيقه السعادة صرفا دون أن نمزجها بالألم . لا يبقى للأكرام طعم أو معنى إذا جاء قسراً أو بعد إلحاح والحاف . وانبرى أحد الخبثاء يوجه إليه سؤالا ينسيه كل همومه وتمزقه بين المزيمة والانتصار يجيئه بعد إعياء : —

— متى كان الصلح ؟ وكيف احتلت له ؟ وكم أخذت ؟

جاءه الفرج ، قد اتحنا له أن يتحدث ، ويفضى إلينا بأسراره وهو حين يفعل ذلك تهدأ نفسه ويطيب خاطره

هذا القزم يعد نفسه من أبناء قريتنا وماهو كذلك . فهو ينحدر

من أسرة لاتجرى فى عروقها دماء الفلاحين ، إذا ذكر لنا موطنها الأول تخيلنا قوما يعيشون فى البرارى ، يلبسون فرو الأغنام ، ويسيرون على أرجل مقوسة ، ويأكلون اللحم المقدد طول الشتاء، قد أوصدت الثلوج أبواب منازلهم . كيف رضوا بترك الوطن والهجرة إلى بلد غريب ونحن نفضل أن نموت ولا نبارح قريتنا ولو كان انتقالنا إلى بلد قريب من بلاد الوطن

وأقامت هذه الأسرة فى العاصمة واتصلت بحاشية السلطان — وهو من جنس دمائها — فاقطعها أرضا فسيحة فى زمامنا . وبنت تلك الأسرة فى هذه الأرض منزلا كبيرا كان أثاثه وتحفه حديث أهل القرية ودهشتهم ، أوان عجيبة الشكل من المرمر والرخام ، ودروع وسيوف معقوصة معلقة على الجدران ، وسجاد كبير تغوص فيه الأقدام ومع ذلك يكاد يُحصر فى منديل ، وجامع الأثاث غزال وببغاء وقرد (كان فرجة لصبيان القرية) وقطة بيضاء مكورة بليدة يختلف لون إحدى عينيها عن لون اختها . . ولما علم أجدادنا أنها فوق ذلك صماء لم يعجبوا من هربها أمام الفأر، أين هى من قططنا ، تدخل بيوتنا وتخرج ، لانأبه بها ، ولا تأبه بنا ، ضامرة البطن مشدودة كالوتر ، متكبرة ماكرة ، مابين رؤيتها للفأر وانقضاضها عليه إلا ومضة البرق . .

تجىء الأسرة مع المحصول ثم إذا انتفخت جيوبها عادت إلى العاصمة . .

وشاء ربك مالك الملك أن يخلف الآباء ابناء أضاعوا ماورثوا وأخذت الأرض تتناقص أطرافها ويد الخراب تمتـــد إلى المنزل واختفى الغزال والقط والببغاء والقرد ولم يبق لسلالة هذه الأسرة في وقتنا هذا إلا ثلاثة أفدنة وحجرتان فوق مدخل الدار لم تنهدم جدرانها وإن كان لا يزال المعلقا بها سيف صدىء ودرع علاه التراب.

ولما مات أمين مخزن السماد فى قريتنا (وهو دكان صغير من أملاك الجمعية الزراعية) وعلمنا أن حفيد هذه الأسرة قد بذل جهدا كبيرا ليفوز بهذا المنصب الهين ومرتبه الضئيل. أخذنا العجب وقلنا لعله رضى به لأنه سيعيش فيما تبقى من منزل الأسرة ويراقب أرضه وينتفع بخيراتها .

روى لنا سائق العربة الفرد يوم وصل صاحبنا بالقطار كيف نزل مرفوع الهامة منتفشا ، تحت أبطه عصا قصيرة ، يتلفت شمالا ويمينا ، يشير بأصبعه للسائق ، كأنه قائد أصيب بالخرس وسط معمعة — وإنما هو الخجل ! — وتقدم نحو العربة ثم وقف ينادى بكلمة «ياهانم» امرأة ضخمة بدينة يزجرها لتسرع قليلا فتلحق به، هذه هي زوجه تخب فى ثياب غالية من الحرير . واحتلت مكانها بجانبه وهو منتصب القامة مرفوع الرأس ، كأنما جاؤا له بدل العربة بفرس أصيل فركبه . . . هكذا يريد أن يدخل القرية ، ودهشنا حين رأيناه يعدل عن منزل الأسرة الخرب ويختار دارا حسنة جميلة فى أطراف القرية يدفع لها إيجارا يوازى مرتبه ، ثم يأتى فى أثره

أثاث لا بأس به ، يدل على سعة العيش ، ويأتى معه أيضا خادم أسود ، وهو ترف لاتعرفه قريتنا .

علمنا بعد ذلك حقيقة أمره ، كانت أسرته لم يبق فيها من الرجال إلا هو ، ويلتف بهذا القزم عدد قليل من النساء ، بعضهن أرامل ، وأغلبهن عوانس ، وكلهن مصابات بأمراض وعلل شتى ، يعشن جميعا فى فاقة متسترة فى منازل مختبئة فى أزقة العاصمة ، ثم ترملت فى الزمن الأخير إحدى قريباته وخلف لها زوجها المرحوم ثروة غير يسيرة ، وأصبحت هى زعيمة الأسرة من حيث الثراء ، فكان من الطبيعى أن تنضم الزعيمة للزعيم ، ولكن صاحبنا القزم ظل مترددا زمنا طويلا ، لايضيره هذا الفارق الهائل بين حجمه وحجمها (وكان هذا الفارق مثار سخرية أهل القرية وانكباب بعض الأفواه على بعض الآذان بسؤال خبيث) فهو أولا لايؤمن بأنه قزم ، وحتى لو فرض جدلا أنه كذلك فإن له هيبة تنسى الناس قياس قامته ، ولن يكربه هذا الفارق فإن النساء يقبعن فى بيوتهن ، وليس من عادتنا أن يخرج الرجل مع زوجه ، فإننا نأبى ونخجل خجلا مربكا أن نرى فى صحبة نسائنا ، إنما سبب تردده ان هذه المرأة دميمة الخلقة ، بشعة الصورة لها عينان وانف وفم واذنان كبقية خلق الله ، ولكنها ركبت أو بعثرت فى وجه عكر فج كالرغيف من العجين ، ناتىء الجبهة ، مهزوم الذقن ، يحتل الخد الأيسر ندبة سوداء كبيرة كالزيتونة ، ينبت منها فرعان أو ثلاثة من شعر صلب مقوس . .

وأخيرا قال القزم ، بعد أن وضعت الزعيمة يدها على التركة . أتزوجها قياما بواجبي كزعيم الأسرة فليس لها أحد غيري

ورفض القزم أن تقول عنه إنها تزوجت من عاطل ، إذا طلع عليهما الصباح بقى فى الدار بملابسها كالنسوة . لايخرج إلى عمل ولا يعود من عمل ، فلا تعرف متى يخرج ومتى يدخل ، لم يبق له إلا أن يدخل المطبخ ويكشف الأوانى ويتشمم الطعام .. وإذا فعل الرجل ذلك زال احترامه بتة من قلب زوجه ، فسعى صاحبنا حتى فاز بوظيفة أمين مخزن السماد فى قريتنا ، وبهذا لا يصبح عاطلا ، وسيعيش فى وسط أناس يعرفون قدره وأصله فتتم له كرامة وعمل وجاه .

وتملكنا شيء من الانزعاج كتمناه فى قلوبنا حين رأيناه يتردد على الحان ليلة بعد أخرى ، هو أول القادمين وآخر المنصرفين . لا يجيئها كما نفعل نحن للقاء الأصدقاء والسمر وتمضية السهرة ؛ بل يجيئها كالغزاة متعمدا لفت الأنظار إليه واصطفاء بطانة تلوذ به ، مبعثراً نقوده فى الفارغ والملآن . .

من أين له هذا المال ؟ لم نلبث أن علمنا أنه يبتزه من زوجته ووصلتنا روايات الجيران عن عراكهما وصياحهما . . ولم يكتف صاحبنا بهذا البذخ ، بل سمعنا بعد ذلك أن رحلاته لعاصمة الاقليم للتموين — كما يقول — من السماد إنما هى زيارات لفتاة من بائعات الهوى خيل إليه أنها تحبه ، فأحبها ، إذا جاءها أغلقت الأبواب والنوافذ

وأعلنت المعجبين بها أنها فى تلك الليلة وقف على صاحبها ولو بذلوا لها من المال فوق ما يبذل هو ، أليس هذا دليل المحبة والأعزاز والإعتراف بقدره ومكانته ؟

ولما ألفنامنه مسلكه هذا نسينا إنزعاجنا وأصبحنا لانراه حتى يشملنا جو من اللهو والمباسطة والدعابة ، ماذا عسانا نفعل غير ذلك مع قزم يجمع فى وقت واحد بين المهابة والعربدة ؟ يريد منا أن نحترمه حين يتبسط معنا ، وأن نتبسط معه حين يزور عنا متجرفا نتلذذ من سماع قصصه عن زوجه ، كيف تغضب لإسرافه ، فيعالج غضبها بغضب أشد إرهاباً لها ، فلا تقوى على احتمال رؤيته مغموما فتجود عليه بما يسأل ، يقسم لها أنه يطلب منها المال هذه المرة لسداد ديونه وأنه لن يعود لتبذيره أبداً ، ويمضى كل لياليه فى الدار .

وجاء يوم نفد فيه صبرها ويئست من علاج زوجها ، لو ترك لها الأمر لأحسنت رعاية هذا المال وتدبيره وتوفيره ؛ فلا يعلم أحد ماذا يأتى به الدهر . وخال لها أن القزم لن يرعوى عن غيه مادام يجد فى جيوبها نقوداً ، فلا حل إذاً إلا أن تفلس هى أولا ، ورغم أنفها ، ولكن أين تنفق نقودها وليس فى قريتنا مصرف مالى ، وحتى لو كان بها مثل هذا المصرف فإن نساءنا (ومن قبلهن رجالنا) لا يعرفن شيئا يسمى إيداع النقود فى المصارف وليس فى قريتنا أيضاً متاجر لبيع الثياب الغالية أو العطور النادرة ، فهدتها فطنتها إلى بعثرة النقود على جيرانها من المأزومين والمساكين ورتبت لأسر

فقيرة إعانة شهرية لا تنقطع ، وتكفلت برعاية بعض أيتام القرية ، من مأكل وملبس وتعليم ، لا تسمع عن أسرة فى ضنك من العيش قد زارها المرض بوجهه الكئيب حتى تهرول إليها محملة بالهدايا فإذا خرجت وجدت الأسرة مبلغاً من المال مدسوساً تحت الوسادة .. فذاع صيتها وعم خيرها القرية ، وأحبها الناس حبا جما ودعوا لها بالخير ، يضربون بها المثل فى النبل والكرم والعطف على الفقراء والمساكين وصارت دارها مقصد المحتاجين .

وأصبح القزم لا يزور عاصمة الإقليم إلا مرة واحدة أول الشهر ولكنه لم ينقطع عن التردد على الحان ، يباعد بين الكأس والكأس ، بالتنقل بين الموائد ، لا ليشرب على حسابنا بل ليحدثنا عن نكبته فى هذه الزوجة المتلافة التى خبط عقلها تبعثر نقودها على الغرباء — وأكثر قصادها من النصابين ! — وتبخل على زوجها ... وإذا سمعنا بالنهار روايات الجيران عن عراك جديد شديد بين القزم وزوجه علمنا أننا سنشرب ليلتنا كوبا من الجعة على حسابه

(٥)

يتهمني أصدقائي أنني جليس غير أنيس ، فأنا معهم اما مطرق كأنني أعمى انصت الحديث لاأشارك فيه إلا لماما، وأما إذا رفعت إليهم رأسي علقت مني بوجوههم وعيونهم نظرة فاحصة متطلعة مُلَحة يضيقون بها ضيقاشديدا ، فلا عجب أن كانت أكثر نظراتي حائرة تائهة موزعة ذات الشمال وذات اليمين .

ووقعت نظرتي عرضا على النافذة فلمحت من خلالها شبح العرجاء سائرة مجدة قد زمّت شفتيها وقطبت حاجبيها ومال رأسها على صدرها قليلا ، ساقها القصير يضرب الأرض بعزم وغضب ، وما لبث باب الخان أن أنشق على مصراعيه كأنما دفعته عاصفة هوجاء .

ودخلت العرجاء تبحث عن زوجها ولعلها رأته هي أيضا من خلال النافذة فى أقصى ركن من الخان ، فهذا مكانه المختار ، الذى يحب أن يجلس عنده إذا جاء إلينا ، وهو لايجيء إلا نادرا ، ولكن العرجاء لاتريد أن تبحث عن زوجها فحسب ، بل تريد أن تخطب وتحظنا وتنهرنا وهي تعلم أنها إذا وضعت يدها على زوجها وسحبته فمشي وراءها طيعا ذليلا منكسر النظرة سترى الخان كله يعمه جو

من المرح والفكاهة فتضيع مواعظها ولا ينفع فينا زجرها — لذلك انصرفت عن البحث عن زوجها وأخذت تتريث عند كل مائدة ، تنظر إلى الجالسين ، وتهز كفها فى وجه رجل تعيب عليـــه شيبته الزرقاء ، وتلكم رجلا آخر لكمة خفيفة فى صدره وتذكره بإهماله لأمه المريضة العجوز ، وتكاد تلوى أذن شاب تعيّره بكثرة ديونه وانفضاح أمره بين الناس ، لم يغضب منها أحد واستخفوا بها لأنهم رأوا عيونها تضحك معهم أيضا ، كأنها ممثلة تقوم بدور يروق لها وأكثر مايرضيها ويسرها أن تبرع فى آدائه .

وصادفت صاحب الخان مقبلا إلى النصب فهمت يدها تطبق على رقبته وأوشك مايحمله من الأكواب أن يقع على الأرض . تقول له بلهجة فصيحة سليمة :

— أنت أصل الداء وسبب بلاء هذه القرية الطيبة ، أصبحت بفعلك مثار سخرية أهل المقاطعة كلها . ويحٌ لك . ألا تستحى ؟ لقد كان الأجانب من قبل هم الذين يفتحون الحانات فى ريفنا فيفسدون عشيرتنا ويبتزون أموالهم بالخمر والربا . ثم حمدنا الله أن تخلصنا منهم ومن شرورهم ونفوذهم فما بالك وأنت من بلدنا تحذو حذوهم فى ضرر أهلك ، ألا ينهاك دينك عن هذا ؟ أم ليس لك خُلُق أو حياء . . كوشون صالون أبو ضير (هكذا سمعنا لفظها وأدركنا أنها تسبه أيضا بلغة أجنبية لانعرفها ونحن اناس على باب الله) فأجابها صاحب الخان :

— لا تنكرى ! إننى لا أجبر أحداً على المجىء هنا ، وعندى ما أقدمه للروّاد من غير الخمر ، كالقهوة والشاى والطعام إن أرادوا ، إنما هم يهربون منك ومن أمثالك ، لا يعجبكن العجب ، وليس وراءكن إلا النكد ، وإذا كنت تحسبين أننى أجمع من مهنتى هذه ثروة أحسد عليها فأنت تخطئين ، إننى لا أكاد أصيب من هذه القرية المباركة ، إلا مايقيم الأود . .

قالت له وهى توجه كلامها لنا جميعا :

— ما معنى هجركم لنسائكم ؟ يعيش الرجال معا فى ناحية والنساء معا فى ناحية أخرى ، ما ابشعها خطة لو تعلمون ، حتى الحيوان لا يفعل هذا !

قال لها أحد الجالسين وهو يبتسم بخبث :

— إذاً فثورتك ليست لأن الخان حلال علينا ، بل لأنه حرام عليكن ! فهل يزول غضبك إذا افسحنا لك مكانا بيننا ؟

— يقطع لسانك ، إننى أشرف من أن اخالط أوشابا مثلك .

لم تتمالك نفسها من الضحك ، كأنما أذهلتها جرأتها على السب ، وإلحام مهاجمها ، وتريثت برهة مكانها وقد زال غضبها وشملها جو الخان بأنسه وروائحه ودفئه ، وبدت عليها الحيرة ورأينا وجهها ينطق بأنها ضاقت ذرعا بوحدتها وحديثها مع النساء وانما ودت لو أمضت سهرتها معنا نحن الرجال نتحدث عن أشياء غـــير العلل والأمراض وأثمان اللحم والخضار فيتاح لها أن تعرض علينـــا

ماعندها من حكمة وعلم وكل ماهى قادرة عليه من عبث ومزاح برىء ، فإنها تحب الضحك .

ومدت يدها فتناولت من إحدى الموائد شيئا من نُقل الخمر وأخذت تأكله، ثم تذكرت سبب مجيئها فأسرعت إلى زوجها،وكان يكاد يختبىء تحت المائدة — وأمسكت به من يده وقد أحمر وجهه خجلا وخرجت تعرج وتجرّه ونحن نضحك ملء أشداقنا .

إننى أعجب لهذه العرجاء ومصيرها ، لا أعلم على وجه التحقيق سيرتها ، ولكنى سمعت أنها من بنات العاصمة ، نشأت فى أسرة معيلة رقيقة الحال ، وعاشت هى فى كنف قريب لهاغنى تبناها تخفيفاً من فاقة أسرتها وأملافى أن يجـــد فى قربها وحنانها ما ينسيه ألم الحرمان من إحدى زينتى الحياة، زينةالبنين، إختارها من بين إخوتها من أجل عاهتها التى أصيبت بها فى طفولتها ، فرق لها قلبه وعطف عليها ، وأدخلها المدارس الراقية ونطق لسانها بلغتنا الفصحى نطقاً سليما وتعلمت فوقه لغة أجنبية أتقنتها كتابة وقراءة ، ومرنت على شغل الإبرة والحياكة وترتيب أثاث البيت بذوق جميل ، فهى الآن على فقرها أنظف نساء القرية مسكناً وملبساً ، ثيابها الرخيصة تنسجم عليها وتستريح لها العين ، ليس لنا مرجع إلا ها إذا تعطلت عند قريتنا سيارة سياح من الأعاجم يكلموننا بلسان لا نفهمه ، وهى التى تترجم لنا أيضاً ما يصلنا بالبريد أحيانا من أوراق ملونة مزوّقة فنعلم أنها إعلانات بعض الشركات الأجنبية فى العاصمة .

وكان المتوقع أن يوصى لها قريبها الغنى بوصية أو يوقف عليها جل ماله ولكنه أخذ يؤجل تنفيذ عزمه من يوم إلى يوم، يكره أن يفكر فى موته أو يراه قريبا، وكان الموت أسرع منه، فهو لا يحب الاستخفاف به فقضى نحبه على حين غرة، وطردها ورثته، أقرباؤه الأبعدون، وكان لا يراهم ولا يرونه، فخرجت صفر اليدين وعادت إلى أهلها وقد أصبحوا أكثر عيالا وأشد فاقة.

أما زوجها فشاب من عشيرتنا، أبوه من صغار الموظفين، عاد إلى قريتنا بعد تقاعده، ولا أدرى أى جهد بذله هذا الرجل بالتقتير على نفسه وبيبيع بعض ما يملكه من حطام، حتى استطاع أن يرسل ابنه للعاصمة لطلب العلم فى مدرسة الفنون والصنايع وظل يعونه إلى أن بلغ السنة الأخيرة وأوشك أن يتقدم للامتحان لينال الشهادة.

وكان الفتى يسكن بجوار أهل الفتاة، وتم اللقاء الأول بينهما بَعْدَ أيام قليلة من ارتدادها إلى دار أسرتها، ثم لم يمض أسبوع حتى عقد عليها وأرجأ زفافها إليه حتى ينال شهادته ويُوظف.

وقال بعض حكماء قريتنا أنها تزوجته لأنها كانت فى تلك الفترة من حياتها وبعد الضربة القاصمة التى أصابتها، يائسة، مبلبلة الذهن، لا تأمل أن يرضى بعاهتها، بعد فقرها — شاب من الوسط الذى طردت منه ولأنها كانت وهى المثقفة المتمدينة المدللة، تضيق ذرعا باكتظاظ منزل أسرتها القذر بعيال تغوط وتبول وتبكى وتصرخ

طول الليل والنهار . فطلبت النجاة منه على أية صورة ، واستجابة لأول طلب ، ولو بدأت من أسفل السلم مع زوج فى منصب صغير إذا كان ينتظر له الرقى فى مستقبل الأيام فكان زواجها فى نظرهم نوعاً من المخاطرة إن لم يكن من الانتحار ، وقالوا عن الشاب إنه لم يكن يطمع فى أن يجد له زوجة مثلها ، متعلمة ، مهذبة ، وأن الفقيرة بعد غنى هم نعم العروس إذا حسنت أخلاقها ، فإذا ساءت كانت نقمة والعياذ بالله ، وقالوا أنه حين رآها تفوقه علما وثقافة وفهما ظن أنه فاز بصيد ثمين ، وماذا يضره ، إذا تزوجها ثم لم يفلح الزواج ؟ أليس أمامه باب الطلاق فسيح . هكذا قالوا عنه فهو فى نظرهم نهاز ومقامر أريب . وقال بعض نساء القرية أن الفتى سحرها وزين لها مستقبله وخلب لبها بوعود كثيرة لم تلبث إلا أن تبددت هباء ، والنساء هن ضحايا الرجال أبد الدهر . وقال شانئاتها : ثم ماذا ؟ عرجاء تزوجت من عاطل ، قد وقع النعل على الحافر .

وإنى لا أقول عن العرجاء وزوجها ماقالوه ، معاذ الله ، هما نعم الزوجين المتحابين ، ليست السعادة فى المال أو الجاه ، بل فى توافق روحين ، خبرت العرجاء وزوجها ، أدخل دارهما أحياناً فأعجب بهدوءه وتحشمه ، وأصاحب زوجها أيام عطلتى فأجد فى صحبته أكبر لذة ، وأستطيع أن أشهد أن زواجها - من قبل عشرين سنة - لم يكن انتحاراً أو قائماً على الكذب والخداع وإلا لمادام إلى اليوم ، وإنما هو الحب ، قد يقال أننى أنقل من بعض القصص

الغرامية وماذا أفعل إذا كانت القلوب قد فقدت اليوم إيمانها بالحب وبهائه والحياة مع ذلك لا تخلو منه وإن أصبح الحب لا يولد ولا يشق طريقه إلا وسط الشكوك والريب ، ولكن الذى كان بينهما هو هذا ! سأرويه كما حدث لأنى أكره الخداع .

كان صاحبنا حينئذ فتى فى ميعة الصبا ، له روح صافية بريئة ، وجسم أشرب ماء الحياة ، تحسبه من مطاط متين النسج ، لا تحطمه الصدمات ، كأنما خلق له القفز والجرى ، كل حركة منه لفتة رشيقة جديرة بأن يخلدها مثال عبقرى ، له يد غير مترفة إذا صافحتها أحسست بصدقه وإخلاصه فهى بعض قلبه ووجه حر أشم العرنين زاده الاحمرار بهاء ، هو فى أية ساعة رأيته تجده كأنه قادم لتوه من نزهة طويلة فى الحقول ، غسلته الشمس ورقصه النسيم ، كما تفعل الأم بصبيها ، تحميه وتدلله ، له نظرة تطالعك لا تنكسر ولا تراوغ ، تنبعث من عينين تموجان بالمرح والبشر ، لا ترهبه الحياة فهى أمامه متعة صافية ، لا يحول دونها عائق ، ماظل فى الطريق الحلال .

أما هى فكانت بالليل تنام فى فراش من حرير تهدهدها يد العز فيمضى نوماً هنيئاً تحدوه أحلام جميلة وبالنهار تتفتح فتنتها كالزهرة يندبها التحبب إليها ويؤرجها مقدرتها الموهوبة لها من عند الله سبحانه على إسعاد الغير ، إذا لم تلبث ابتسامتها على شفتيها إلا قليلا فإنها تمكث فى القلوب كثيراً ، حتى كادت تنسى عاهتها . ثم إذا بها تستيقظ فجأة ، تسقط من شاهق على ساقها الأعرج ، وتتحول من

الإعزاز بين السعداء إلى الضياع وسط المهزومين ، ومن الغنى العريض إلى الفقر المدقع ، وهي عاجزة عن السعي ، يحدث هذا دون ذنب جنته ، كان خيرا لها ألف مرة لو تركت في فقرها الأول فهي لم تطلب الغنى حتى يقال عن هبوطها أنه عقاب الطمع بل الغنى هو الذي حط عليها وخطفها — كما تفعل الحدأة بصغار الفراريج — حتى إذا علا بها تخلى عنها وتركها تهوى إلى الأرض

وأدركت العرجاء أن الحياة أم لها ثديان أحدهما يجود بالعسل واللبن ، والآخر ينضح بالمر والعلقم وأن من طبع هذه الأم — لحكمة لا نعلمها — أن تنقل بعض أبنائها من ثدى إلى ثدى ولو مرت تجربة العرجاء برجال أشداء عركوا الحياة واستخفوا بالجهاد لزلزلوا لها زلزالا شديدا فمنهم من يتحطم ومنهم من ينطوى على مهل وتمضى محنتهم مثلا ترويه الألسن وتتناقله .

ولكنها لم تتحطم ، وإني والله بها لفخور ، بل كانت كالعطر المبذول يصفى على النار فيستخلص جوهره الكريم ، أصبحت تدرك نشوة الكرامة ومعنى رفع الرأس ، وتفهم أن عاهات البدن — مهما أوغلت — هفوات أحداث عابثة لا تخدش الروح ، وأن الحياة التي كانت حولها جميلة ، نائمة ، هي الآن حولها جميلة متوثبة .

ووقعت نظرتها على جارها الشاب فشعرت بروحه الصافية وجسمه السليم ، ووقعت نظرته على جارته فأحس معدنها المصقول وأنها إن شاءها فهي عصا خيزرانة تنثني ، وإن شاءها فهي عكاز من حديد .

ولكن لمَ اللف والدوران ؟ لماذا لا أقول فى كلمتين إنه أحبها وإنها أحبته وآمن الإثنان أنهما إذا تقاسما الحياة كملت لهما ، تعلم أنه وبى فقير ، ويدرك هو أن قسمتها فى الحياة عرجاء .

ورضيا بالحياة كما هى . ولكن هل تظن أن الحياة رضيت بهما كما هما ؟ إن لها فى بعض الأحيان نزوات لا نفهمها وعناد يغيظ إذ لا ينفع فيه شىء يسمى منطق البشر وهو كل ما لدينا . . .

خرج الشاب ذات صباح من داره ليذهب إلى المدرسة فإذا دروب العاصمة تموج بحشد غفير من المتظاهرين ، هم أخلاط وأشتات جمعهم الهتاف بسقوط الحكومة . لا أذكر الحادثة التى أثارتهم ، فما أكثر ما سمعنا من أنباء هذه المظاهرات حتى ألفناها لتشابهها وعقمها وأصبحنا لا نأبه بها . اعتقد أن الحادثة ترجع إلى تناحر حزبى على مقاعد الحكم ونزاع بين زعيمين هو فى أغلب الأمر تنافر بين مزاجين لا يرقى إلى مرتبة الخلاف بين رأيين ، واستطاع الحزب المعارض أن يلبس أطماعه فى الحكم ثوب الدفاع عن حقوق الشعب وحريته ، وانساق بعض الناس وراءه ، بعضهم تطوعا ، فما أسرع أهلنا إلى الحماس والهياج ، وبعضهم طمعا فى تحقيق مصالحهم الذاتية إذا تغيرت الحكومة ، وشعبنا كبقية الشعوب ، لا يخلو من المنافقين ، ولعلّ كثرة المتظاهرين لا يريدون نصرة الحزب المعارض بقـــدر ما يريدون الجهر بضيقهم من متاعب العيش لا يستطيعون إلقاء مسئوليتها إلا على رأس الحكومة ، أيا كانت

وكان صاحبنا لا يحب السياسة ، ولا يناصر حزبا على حزب ، ويكره الخصام والجدال . هدفه الأوحد أن ينهى دراسته

وأخذ يتطلع إلى وجوه المتظاهرين بشيء من الرثاء والسخرية والفكاهة ، هذا العامل الفقير الممزق الجلباب إنما يلهو ويعبث حين يقلد قائد المظاهرة ويردد وراءه هتافاته المسجوعة وهذا الأفندى يتصبب عرقا وسط الزحام ، لم وفيم يزج نفسه فى هذا المأزق . وانصرف عن المظاهرة يقول :

— هى حكومة تريد أن تتشبث بمقاعد الحكم ما أمكنها ، وجماعة من العاطلين المتهوسين لا ينتبهون إلى أنهم ألعوبة فى يد ساسة من المكرة الدهاة . إنه ليس مثلهم غرا تنطلى عليه حماسة قائد المظاهرة . إن قلبه يحدثه بأن الرجل مأجور ، وهذا الخطيب المفوه له صورة الذئاب . يهدر صوته كالرعد دفاعا عن الوطن والشعب المسكين إنما هو جاسوس يتقاضى من العدو مرتبا كبيراً كل شهر

ووصل إلى المدرسة فراعه أنها محاطة بعدد كبير من الجند ، على رؤوسهم خوذ كريهة اللون ، يحمل بعضهم البنادق ، وبعضهم العصى الغلاظ

ورأى زملاءه الطلبة قد لاذوا بسطح المدرسة اتخذوه حصنا يقذفون منه على الجنود حطام أثاث مدرستهم — ياللحماقة ! — يتلفون أموالهم بأيديهم !

زجره جندى واغلظ له ، فابتعد عنه ، ووقف بجانب الباب

حائراً يقول لنفسه « أين أذهب ؟ هذا يوم آخر من أيام الدراسة يضيع هباءً . » وهمّ أن ينصرف ، فإذا بحجر يصيب رأس قائد الجند وإذا بهم يندفعون جميعا نحو الباب فيجد نفسه محمولا وسط التيار يصعد معهم سلم المدرسة ولكنه تخلف عنهم فى الطابق الأول ومضوا هم إلى السطح وسار فى الدهاليز متجها الى فصله ليرى من بقى فيه من زملائه ومرّ أمام المرحاض فرأى رفيقا له مختبئا وراء بابه هو صبى نحيل ضعيف مسالم يكره العنف والضجة ، فقال له « لماذا تختبىء هنا ؟ الموقعة دائرة على السطح فتعال معى إلى الفصل . هو الذى جرّه وأخرجه والصبى يقول له « تحسن صنعا أنت لو اختبأت مثلى فى المرحاض . » لم يكد يسير بزميله خطوتين حتى أطبقت عليهما زمرة من الجند ورأى واحدا منهم يرفع عصاه الغليظة ليهوى بها . لم ينس إلى الآن وجه هذا الجندى ينطق بالقسوة البالغة والكره الشديد ، هو وحش كاسر يلذ له أن يلغ فى الدم . وقبل أن يقول له الشاب « تريث ! لاشأن لنا بما حدث ! انتظر ! اسألنا سؤالا واحداً نجبك بما يريحك ! هوت العصا الغليظة بقوة على رأس زميله المسكين والضعيف هو الذى يتلقى الضربات ، حتى غير المقصودة منها ! » فوقع على الأرض وتفجرت الدماء من جروحه .

انكفأ عليه لحظة ثم قام هائجا وأمسك بتلابيب الجندى ولكن بقية الجند ضربوه بكعوب بنادقهم وجروه الى سيارة السجن وقذفوه فيها مع نفر من زملائه .

وفى اليوم التالى علم أن رفيقه المسكين لم يستفق من ضربته حتى مات بعد ساعات قليلة ، وأن الحكومة أمرت بدفن جثمانه سراً خوفاً من أن تقام له جنازة تنقلب مظاهرة أخرى .

إذا ذكر إلى اليوم وجه الجندى فإنه نسى السجن وليلته فيه نسيانا تاما ، إذ كان ذهنه مشغولا بمسألة تهز كيانه هزاً عنيفاً . كان بالأمس لاشأن له بالمظاهرة وأسبابها ولكنه اليوم يدرك معنى الظلم بل يعتقد — وهنا الخطر — أن هناك من المظالم مالا يمكن دفعه إلا بمثل قسوتها . إنه لا يريد أن يناصر حزباً ، أو يدافع عن رأى ولكن لامفر له من أن يثور فى وجه الظلم أيا كان ، ياللهول والخسة والجُبن ! يُقتل صبى غرير بلاجريرة ، على يد واحد من مواطنيه لماذا ؟ منْ قال بهذا ؟ وكيف يمكن الاقتصاص من هذا الجندى وهو آخر الأمر حلقة فى سلسلة طويلة لا يُعلم أولها من آخرها . إن فعلة الجندى دليل على أن هناك خللا فى جهاز الحكومة ، بل يدل — ياللنكبة الكبرى — على أن هناك خللا فى كيان الأمة كلها وما كان هذا الجندى يقدم على فعلته لولا إحساسه بأن نفوس رؤسائه أشد استهانة منه بكرامة الشعب ، وأنه عبر بضربته عن خبايا نفوسهم .

وأنف صاحبنا أن يعيش بلا كرامة ، مهدور الإنسانية ، حقيرا ذليلا ولما عاد للدراسة كان أكثر الطلبة مشاغبة وهياجا ، لم يترك مظاهرة واحدة دون أن يسير فى مقدمتها يحطم الترام ومصابيح الطرق بلذة

كبيرة . وفصلته المدرسة وحرمت عليه الحكومة دخول كافة معاهد العلم فى القطر كله .

وكتب له أبوه : « يا ابنى ! ما دمت لم تفلح فى المدارس فعد إلى بلدك نفتح لك دكانا ترتزق منه ، فأنت على قولك تعلمت أصول النجارة والبرادة والسباكة . »

وسار بهذا الكتاب متهلل الوجه إلى صاحبته وقال لها : —

— ليس لنا عيش فى العاصمة ، فسيظل البوليس يتتبعنى ، ويلقينى فى السجن كلما طرأت أزمه ، فلا يشفينى إلا البعد عن هذه المتاعب وأن أعيش فى الريف حراً ، ناجياً من الظلم البين والاستبداد . فهل تقوين على سكنى الريف معى ؟ فقالت له .

أنا معك أينما كنت ، فى السراء والضراء .

ولم تفصح له عما قاله قلبها أيضاً : —

— وسأعينك بشغل يدى

وفتح الشاب بمساعدة أبيه دكانا للنجارة لأنها أنظف من السباكة وأخف مشقة من البرادة ، وبدأت العرجاء تخيط بذوق جميل لقاء أجر قليل ثياب بعض الموسرات من نساء القرية ، وأقاما لهما داراً متواضعة هيئة وأثاثا ، ولكن يكفيها أن الحب يرفرف عليها ، وكان الظن أن الدنيا رضيت بهما على صورتهما الجديدة ، ولكن لا .

إن ثورة الشاب على الظلم انقلبت عشقا مولها بالحرية وكرها عميقا لكل قيد ، مهما كان هذا القيد . وأنف الشاب أن يحتفظ

بزىّ أهل المدن وأبى أن يرتدى زى الفلاحين ؛ لأن الرأى العام في بلدنا سيرى — ياللاسف والعجب — أن فى ارتدائه لزى قومه حطة وتدهوراً . فاتخذ له زيا وسطا ، بلا طربوش أو قميص أو ربطة عنق ، بل اكتفى بسروال متسع عليه صدرية من الصوف من شغل زوجه .

وكان دكانه فى أطراف القرية ، تمر أمامه ترعة صغيرة عليها جسر من جذوع الشجر ، يصلح لمرور الناس والدواب ، لا العربات والسيارات ، ووراء هذا الجسر حقول ممتدة إلى نهاية النظر تقوم فيها هنا وهناك أشجار ويفنا ، وهى أشجار وارفة الظلال ، عليها وداعة الشيخوخة وازورارها من زحمة الحياة ومتاعبها ومشاغلها ، تتدلى أغصانها فوق ساقية إن كانت على جسر الترعة ، وأما إذا قامت وسط الحقل فما أبرد ظلالها عند الظهيرة للفلاح المتعب وجاموسه النحيل . . وهذه الترعة العكرة التى تمر أمام دكانه تبدو لها من بعيد أخت لها براقة كالفضة .

استحوذ سلام الحقول على لب الفتى فأخذ يهمل دكانه ويعبر الجسر إلى أرض الله الواسعة ، لا تصل إلى آذانه ضجة أو ضوضاء يسير بجانب المصارف يتأمل الزرع ويقف أمام الحيوان كأنه يراه أول مرة :

هذه الجاموسة — جلدها كذوب الطين — لا تزال رغم طول عشرتها لنا تحلم بموطنها الأول — منابع نهرنا العظيم ، وهذه البقرة قد

فى أجش إهاب عليها هالة من قداسة وإن نسى الناس عبادتها ، وهذا الجمل ، سيد متكبر هبط علينا من كوكب آخر ، فلا شبه بينه وبين بقية حيوان هذه الدنيا — إذا استناخه صاحبه أرغى وأزبد ، ثم انهد طبقة بعد طبقة وظلت رقبته تمتد بعجرفة من وسط خرائبه أما الماعز المتوثبة النزقة فأغلب الأمر أنه يسمع مأمأتها قبل أن يرى قرونها الخرنوبية .

وكان إذا قابل فى تجواله فلاحا عند ساقية جلس إليه وأكل من طعامه ، وربما أصلح له ساقيته متطوعا ، بلا أجر ، أو إن قبل مكافأة أخذها جبنا ومشا وبتاوا . . وبعد قليل شاهده الناس يخرج إلى الحقول وفى يده غابة وشص ، ويجلس إلى الترع والمصارف يصطاد السمك ، ثم رأوه بعد ذلك يخرج ببندقية ولا تدرى من أين جاءته ؟ — ويظل يراقب الطيور ويتشممها ، وحينئذ هدأت روحه وسكنت ثورتها .

وأغلس دكان النجارة ، وكان عذره أن العمل قليل ، ونسى أننا كنا نطلبه فلا نجده ، وأن العمل الذى نكلفه به ونظن أنه ينقضى فى يوم يظل فى دكانه أسابيع وشهوراً ، ولست أنكر أننا ما طلبناه مرة لصنع خشبة لميت إلا وجدناه فى دكانه ولا أدرى كيف ، ويعدها الناس من كرامات الميت ، وكم للموتى عندنا من كرامات .

وقيل له « إذا لم تفلح فى النجارة فعليك بالسباكة ، فإن أهل القرية فى حاجة دائمة لمن يصلح لهم مواقد البترول وكذلك تجار

لا المسلى فى حاجة لمن يلحم صفائحهم ولكن ما آل لدكان السباك لم يكن خيرا من مآل دكان النجار وأفلس الشاب مرة ثانية . ثم استمر زمنا يعمل كبراد ، فجاءه أصحاب آلات الحرث والرى — وكان لا يطالبهم أن يأتوا إلى دكانه بما يريدون إصلاحه ، بل كان يذهب هو إليهم — هى ذريعة يتصيدها ليقضى نهاره فى الحقول وقد تمتد جولته إلى قرية أخرى ويغيب فيها يوماً أو يومين ودكانه مغلق ، والناس تبحث عنه فلا عجب أن أفلس للمرة الثالثة .

وكانت العرجاء هى التى تصرف على البيت من مكسبها ، وكان الزمن قد قسى عليها ، فالعلة التى أصابتها فى طفولتها وسببت لها عاهتها، داء يكمن كالسم الخبيث فى الجهاز العصبى ويتلفه شيئا فشيئا وأخذنا نلحظ عليها — فى العهد الذى أتحدث عنه — هزات عجيبة تلوى يدها إذا تحدثت ، وتقلب مشيتها العرجاء إلى نوع من الرقص المتراوح شمالا ويمينا ولا أدرى هل انحلت أم يبست بعض عضلات وجهها إذ أصبحنا حين نراها فى أوقات غضبها لا نعرف هل هى ضاحكة أم باكية ، واستقل كل حاجب عن أخيه فى حركته ، وكأنما اتسع جفناها عن حدقتيها أو ضاقت عنهما عيناها فأصبحت أبدا نظراتها نظرة شاخصة محملقة ينقبض لها صدر محدثها . . وغلب عليها نوع من السذاجة ، لا تسلكها بين المرضى لأنها لا تبلغ درجة البلاهة ولكن جعلت أهل القرية يقولون عنها أن فيها شيئا لله وزاد عطفهم عليها ومحبتهم لها ، فلم ينقطع رزقها من عمل يديها .

ولا تحسبن أن أهل القرية تنكروا لهذا الشاب ونعوا عليه حماقته وأفن رأيه وسوء تدبيره ، فإن له ابتسامة تميت النقد من قبل أن تنطق به الشفتان ، بل من قبل أن ينخر كالسوس فى القلب ، وأدركوا أخيرا — وهم لا يعلمون كيف حطمت حادثة صديقه المسكين روحه — أن لا علاج له ، وأنه طفل فى ثياب رجل ، لا يزال يحب الجرى والقفز — ومَن منا لا يحب الأطفال ؟ وفتح له أهل القرية جميعاً مع قلوبهم بيوتهم إكراما له ولزوجه العرجاء ، يدخلها حتى فى غيبة رجالها ، فما رأى شيئا تالفا إلا تطوع لإصلاحه ، من تقويم السقف وإيقافه عند حده ، أو اسكات الصنبور الثرثار ، إلى تأديب الرتاج ليسحب لسانه الطويل . . وهكذا . قلما ندفع له مالا فهو لا يسألنا شيئا ولأن العرف جرى أن العاطل لا أجر له ، ولكنه كان أحيانا يشاركنا طعامنا وشرابنا ولهونا ، ويحب فى بعض الليالى أن يجلس إلينا فى الخان يروى لنا آخر انتصاراته — والله أعـــلم بالمبالغة — وقلما برأ منها صياد — فى صيد البر والبحر .

ولا أنسى إلى اليوم حيرة العمدة حينما وصلنا من العاصمة استمارة طويلة عريضة وأريد منه أن يبين فيها مهن أهل القرية صنفا صنفا وعدد العاطلين وسبب عطلهم ، وهل هو موسمى ، أو على مدار السنة ، والعمدة لا يؤمن بفائدة هذه الاستمارات ولكنه مُكلف بأن يسد الخانة . . فحك رأسه ودارت نظرته حول جلسائه ،

وتردد برهة، ثم سأل الله المغفرة وكتب اسم زوج العرجاء فى خانة العاطلين وذكر أمامه أنه عاطل على مدار السنة، ثم أبى أن يضيف عليه اسما آخر، لأنه أنف أن يصف بالمتعطلين بعض أهل بلده وكلهم يسعى ويكد فى طلب الرزق فليس من العدل وان لم يصيبوا من دنياهم سوى الكفاف أو أقل من الكفاف أن يسجل فى أوراق رسمية أنهم من العاطلين، والذنب ليس ذنبهم . .

ولو كان للحكومة نفس تحس وتشعر لأضافت إلى الاستمارة خانة جديدة تسأل فيها عن العاطل هل هو سعيد أم غير سعيد فإنها لو فعلت لكتب فيها العمدة باتفاقنا جميعا أمام اسم زوج العرجاء :

— سعيد جداً . .

(٦)

مضى نصف الليل أو كاد ، وانصرف عن الخان غير المحنكين على الشراب . بعد أن أصابوا ما أتوا من أجله ، كأن قدومهم للخان أداء لوظيفة . . وخلص لها زوارها العتاق ، عشاق الليل ، هم بطانته ومريدوه ، يؤذيهم النهار بضوئه الساطع ورؤيتهم للمخلوقات من حي وجماد في صورة فجة ، افصحت قسماتها فعريت وتبدد سحرها ، كأنها جميعا من مرتزقة الجند ، يساقون إلى معركة لا يعرفون مكانهم فيها ، شجاعتهم غير منبعثة من القلب ، بل هي من أثر التدافع وانعكاس وميض السلاح على الوجوه ، فلا عجب إن خالطها الألم واقترنت باعياء يحاولون ستره فلا يخفى ، أما أهل الليل فهم الذين لا يرفعون أصواتهم ، حديثهم نجوى ، يسمعون همس المخلوقات ما غفل منها وما لم يغفل بأسرارها وجمالها وأوهامها وأوجاعها وتسبيحها لبارىء الكون ، الليل عندهم رقة وصفاء وسلام ، بين كل نجم وقلوبهم شعاع متصل .

هبطت الضجة ، وفرغ كل جالس لنفسه وهو راض عنها فقد استرخت وكفت عن النخر ، وخال انه ارتد طفلا ، وان الخان مهده ، وأن سكره من فعل يد رقيقة تهز له المهد وتهدهده لينسى . .

وبدأ صاحب الحان يجـــود علينا وهو سعيد بأعز ماعنده من شراب يضن به على غيرنا .

ولكن اعتكاف الروح لم يدم طويلا فهى ظامئة ابدا الى جديد تريد أن تأخذ بنهم لتعطى باسراف ، وليست السعادة فى الثروة مهما بلغت إذا ركدت ، بل فى تجددها وإن قلت . لذلك انبعثت فينا نشوة حلوة وملأنا البشر جميعا حينما رأينا الفتى الفنان يدخل علينا كأنه هبّ النسيم العليل ، وفى يده الكمان.

وتفرقت حلقات الموائد وتجمعت حوله وأصبح هو سيد المكان وواسطة العقد فالصدارة حق الفنان أينما حل .

هذا الفتى أبوه أغنى تجار الحبوب فى قريتنا ، ليس له ولد غيره ، يدخل مخازنه ، ويسافر للأسواق وهو مطمئن النفس صادق النظرة والحساب لعلمه أن وراءه أبنه يحل محله ويقيم مجده إذا أقعده المرض أو خطفه الموت . ودفع ابنه للمدارس حتى إذا نال الشهادة الثانوية جذبه لمتجره وأمره أن يلزمه فيه كظله وأن يصحبه فى أسفاره آملا بذلك أن يشتد عود الصبي ، ويألف المشقة والصبر ، ويفهم أسرار التجارة ، فهى عنده لا تستقى من الكتب ، بل تكتسب بالممارسة والمران .

ولكن أمر الفتى عجيب ، إنه يضيق ذرعا بمهنة أبيه ، ويكربه أن يلح على الفلاح لينقص له من ثمن قمحه مليما أو مليمين ، ويكره المال ورأس المال والجمع والطرح ، والتاجر عنده — وكثير من

الأبناء يسبون آباءهم فى قلوبهم وهم لا يشعرون - إما رجل متزمت منطو على نفسه مكابر يظن أنه يقرأ الغيب ، وإما مقاتل لا يمسكه قانون أو رحمة . لم يفهم شيئا من أسرار التجارة ، ولم يفلح عمل واحد تولاه مستقلا عن أبيه ، فماله هو ولهذا كله ، لم تزل روحه تهتز بأصوات خفية تتسرب إليه من كل مكان وجهة ، إذا جلس فى الدكان تلقفت أذنه صوت مطرقة الحداد ووقع حوافر الجواد فى المشى والعدو ؛ صرير الباب له فى قلبه صدى ومعنى ، فإذا خرج للاسواق فى صحبة أبيه حار لا يدرى أى الأصوات أولى بانتباهه حفيف الشجر ، وخرير الماء وعويل الريح ، وخشخشة أعواد الذرة إذا ضربها الهواء ، حتى الطير وهو يحوم فى السماء يصبح عنده نغما ناطقا ؛ وفوق كل هذا أصوات تحدثه بها نفسه . كأنها خزانة ملأى بالماس والبروق ، باللؤلؤ وقطر الندى ، بالياقوت وجراح الحب ، بالزمرد واطمئنان النبيل الأصيل ، كلها تريد أن تنطق على شفتيه ، وأن ترى النور من خلال عينيه . سجل فى قرارة قلبه جميع نداءات الباعة ، وأغانينا الشعبية ومواويلنا الحمر ، تلقط أذنه وسط الضجة هتاف الفلاح لفلاح آخر يفصلهما نهرنا العريض فيهتز له قلبه ، يكفيه أن يسمع مرة واحدة دورا أو أغنية حتى تخلد فى روحه ، وأصبح إذا جلس فى الدكان يحسبه الرائى غائب الذهن لا يشعر بما حوله فنظرته مثبتة فى الفضاء إلى بعيد وشفتاه تصفران بصوت خافت ، وأصابعه تنقر على ركبته ويتمتم كأنما يلوك علكا

لذيذا لرجاء ، وكنت إذا رأيته على هذه الحال أعجب لنظرته ، أحس فى غامة الناس أن فى رؤوسهم من وراء أعينهم سداً تصل إليه المرئيات فيصدها إلى حيث أتت وتنطق بها العينان ، وهناك رؤوس خلت من هذا السد لأنها متصلة بأسرار الكون ، فتمر المرئيات بالعيون ثم تهوى فى فضاء سحيق ولا تعود . هى عيون الحيوان والفنانين الحالمين وبعض المجانين .

وأخذ الأب يراقب ابنه ، يرتجف قلبه إشفاقاً عليه ، إن أكبر ما يسره أن يرى ابنه فى الدكان ، كأنما يستعيد هو ذكرى شبابه حين قذف به فى الحياة مبكرا ليكسب رزقه ، لم ينصحه ناصح أو يبصره خبير ، ومع ذلك فقلب الأب لا يغبط الابن على حظه ، إن أكبر سعادته أن يحوطه بعنايته ، ويمهد له السبيل ، ويجنبه المآزق ، ويقوده برفق ، فهل تضيع كل هذه الجهود عبثاً ؟ هل ينهار البناء بعد أن أقيم بصبر حجراً على حجر ؟ وإذا أبوه يفاجئه فى يوم بسؤال : —

— ماذا تريد أن تفعل بنفسك فى هذه الدنيا ؟

صمت الشاب خجلا ، ثم رفع رأسه وقال : —

— أريد أن أكون ملحنا ، فهذا ماخلقت له وجبلت عليه .

كأنما طعن قلب الرجل بسكين .

— وهل هذه المهنة ، إن شئت أن تسمى التلحين مهنة ـ توفر لك رزقاً لا أقول فسيحاً ، بل رزقا يكفيك ذل الحاجة أو الفاقة ؟

— لاأدرى . لم أفكر فى ذلك فأنا مسير لامخير ولو استطعت أن أصم أذنى عن الأنغام لفعلت ، إكراما لك ، فإنى أود أن أكون لك طيِّعاً لاعصيا .

— يابنى إنى لا أطلب منك جزاء ، وكل ما أريده لك أن تكون رجلا فالحاً والرجولة لاتكمل إلا إذا قمت بواجبك وأديت عملا فيه نفع للناس وعمران الأرض وتكثير للرزق . موسيقى ؟ تستطيع الدنيا أن تعيش فى رغد بلا موسيقى ولكن لا تستطيع أن تعيش يوماً واحداً بلا خبز . يا بنى إن الإنسان لم يخلق عبثا ، خلق للجهاد لا للأحلام فأنت ترى الطفل يولد قد ضم يديه ورفس برجليه وبكاؤه تحذير بأنه مقبل يشق طريقه بعزم فى معترك الحياة . بذمتك هل رأيت طفلا يولد وهو يدندن ؟

أطرق الفتى وقد تندى جبينه ولم يجب وأدرك أبوه أن كل جهد عبث وليس فى الحياة ألم أشد من ألم الأب حين يرى كل ما يبذله لابنه من محبة وعناية كأنه نفخ فى قربة مقطوعة ، فغضب عليه ، وأقصاه من مجلسه وقتر عليه المال . وانضم أكثر أهل القرية الأب وازدروا بالفتى واهوائه وعُدّ عندهم أحمق مأفوناً أما نحن رواد الخان فهو عندنا عزيز أثير ، نحبه من كل قلوبنا ولا تمنعنا الاثرة من أن نرجو أن يتاح له السفر للعاصمة ليتزود من العلم ويشتهر بين الناس ، ونعجب لهذه السعادة البينة التى تغمر روحه وجهه ، رغم ما يلقاه من عنت أبيه وسوء ظن عشيرته وكان يقول لى : —

— مسائل الأكل والشرب هينة ، وليس هناك إنسان يموت جوعاً أو ظمأ ، وإنما هي الأطماع ، وليس لى مطمع فى ثراء أو بذخ ، بل سعادتى أن أعيش حراً لنفسى طليقاً ، وأن أعبر بألحانى عن كل ماأسمعه وأحس به وأنا واثق بأنى سأسعد كثيراً من الناس ولو حيل بينى وبين الموسيقى لتحطمت روحى ، ولعل اندفاعى مبعثه إننى أحب أيضاً أهل بلدى إذ أشعر أن عندى شيئا أريد أن أقوله لهم ، وأنا ضيق الصدر بأغانيهم هذه الأيام ، كلما سمعتها نبض عرق الحياء فى جبينى إننى أتأفف من تلك الأغانى المبتذلة الخليعة كأنها صدى لفراش عاهرة ، كيف تدخل هذه الأغانى بيوتنا وتجرى على ألسنة أطفالنا ؟ هذه نكبة ؟ سمعت كثيرا وصف أدواء هذا الوطن وترتيبها أما عندى فهى : الأغانى الخليعة . والفقر والجهل والمرض . نعم أننى أضع الأغانى الخليعة فى رأس القائمة !

وإذا سألت كيف يجىء هذا الفتى للحان أجبتك أنه لايحب الخمر ولا يشربها، إن روحه كجواد أصيل يعاف السوط ويكره أن تكون بدائع الفن وليدة عقدة نفسية أو حرمان جنسى أو أبخرة الخمر ووهم المخدرات ، فكل نتاجها سراب خادع ، قد يبرق ، وقد يرتوى عليه الضال ، إذا خبطه الهذيان ، ولكن صدقه نفاق، وعمره هباء ووجوده زوال .

ولما دخل الحان وتجمعنا حوله نظر إلينا وقال :

— دافع خفى يسوقنى إليكم ، فأنا أحب مجلسكم وأحب جو

الحان ، كما هو رغم ما يخالطه من رائحة مرحاضكم يتبادل عليه شاربو الجعة منكم ، إننى أحس هنا بالدفء والحياه ، كما أحس بها وسط الحقول وبين الأزهار ، إن الساعات التى أقضيها معكم تلهمنى أحسن ألحانى وأنتم كل مالى من أصدقاء فى قريتنا ساعحها الله

قال له صاحب الحان بابتسامة خبيثة :—

— ولماذا لا تعترف بأنك تبحث أيضـــاً من جمهور يسمع ألحانك وأنت ضامن وده ؟ فلا أظن الإلهام يدوم طويلا إذا لم يتصل الفنان بالناس وتجمعهما تلك المجاوبة الروحية التى هى قوام كل نتاج فنى وهدفه ؟

قال له الفتى :—

ياجاهل ! إننى ألحن أولا لنفسى ، وإننى كريم أحب الناس ، فليس أشهى على قلبى من أن أشركهم فى تذوق كل جمال وهبته . . ماذا تريدون أن أعزف لـكم الليلة ؟

قال له القصاب ؛ —

أسمعنا أولا من القديم حتى إذا أسلكت أنغامه فى آذاننا ورسبت فى قلوبنا دخلت بنا فى الجديد من ألحانك إذ نصبح أكثر فهما لها وأسرع إحساساً بالفرق بين الاثنين .

فقاطعه القزم قائلا كأنه خبير بالفنون جميعها :—

— أتركه لمزاجه ، إن الفنان لا يؤمر .

وأخذ الفتى يعزف لنا من القديم ألحانا وتقاسيم تشربت بها

نفوسنا فى لحظة ، تذكرنا بها آباءنا وأجدادنا ، وبساطة حياتهم ، وماضى عزنا القديم ، ولكن نفوسنا كانت كقطعة الإسفنج ، سريعة الامتصاص ، سريعة الارتواء ، هذه الموسيقى عبث صبي يرسم بعصاه على الرمل أشكالا هندسية متداخلة متشابكة متكررة لا يعرف لها أول من آخر ، ولا مبدأ أو نهاية ، إذ ليس لديها ماتقوله ، والعجيب أن هذه الأنغام الضحلة تهصر قلوبنا بمقدرتها الشيطانية على إثارة الحزن والأسى والتفجع ، ولا بأس بها إن فعلت ذلك لو انتقلت إلى فتح باب الأمل والبهجة ولكنها تلح فى الانين وتبالغ فيه حتى يبلغ درجة التمزق والانهيار ، وخليق بالمرأة إذا سمعتها أن تلطم خديها وتشق جيوبها وبالرجل أن يحس بأنه يغوص فى بئر عميق مظلم يرميه فيه قدر قاس لا يرحم ، لا مفر منه ، لا يقابل إلا بالاذعان ، وكل جهد فى مقاومته ضائع هباء وليس لسامع هـــذه الموسيقى إذا أراد أن يعبر عن استحسانه لها إلا أن يتأوه ويتفجع . . وإذا مالت إلى البهجة ، لم تجد إلا أنغام « النقر وتلعيب الحواجب » وترقيص القرود .

وليس من العجيب أن تسرى بالعدوى ضالة هـذه الموسيقى الصبيانية إلى الكمان ذاتها ، وهى الآلة الموسيقية التى تضم الأنغام جميعها فهى فى يد العازف من أهلنا لا تزيد عن ربابة من وتر واحد إنى أرى الكمان حينئذ كالمرأة الحرة الشريفة حكم عليها الزمان فأصبحت مومساً .

وقال الفتى بعد قليل : —

يكفيكم هذا واسمعوا الآن شيئا جديدا .

وعزف لنا ألحانا ليس فيها ألاعيب البهلوان أو رقص القرود أو دقة الزار ، بل أجبرنا أن نصمت ونتأمل ، وشعرنا بسعادة كبرى تغمر نفوسنا وخال لنا أن الدنيا مُذ خلقت وإلى أن تفنى دنيا جميلة ليس فيها خبث أو نكر ، وأن للإنسان مطلبا أسمى من حاجات دنياه واعتزم كل منا فى قرارة نفسه أن يكون من غدٍ أطهر قلبا وأعف يداً ولسانا وأكثر مودة للأهل والناس

وبعد أن فرغ الفتى نظر إلينا وقال ، كأنه نسى ما عزف : —

— سأفضى لكم بسر ، سأسافر بعد قليل إلى العاصمة . وسأشق فى الحياة طريقى كما أريد ولو ذقت الفاقة والجوع .

ثم تركنا ، يخشى أثارة غضب أبيه إذا طلع النهار فلم يجده فى فراشه وعاد الحان مرة أخرى إلى هدوئه ، لم يبق فيها إلا نفر قليل كلهم صامت مطرق ، وجعد صاحب الحان وراء الشصب يدخن لفافته ، وسمعنا وقع أقدام فوق السقف ، وخفت ضوء المصباح يردد أنفاسه الأخيرة ، وانصرف الجميع واحدا بعد واحد ، وكنت تلك الليلة آخرهم ، فلما مررت أمام صاحب الحان استوقفنى قائلا : —

— العجب لك ! إنك تشارك الجميع أفراحهم وأتراحهم ، كأنها أفراحك وأتراحك ، فسعادتك مضاعفة ولكن ألمك أشد ،

أليس لك أنت أفراح وأتراح ؟

فضحكت فى وجهه وقلت له : —

— لا يليق بصاحب الحان أن يكون أشد من رواده سكرا ، أنت تهزى ! خير لك أن تقتدى بأصحاب الحانات من الأجانب فى العاصمة رأيتهم يصبون الخمر للفقراء وهم أنفسهم يشربون كوبا من اللبن ويضحكون . . إلى اللقاء ياعم فى غدٍ ، صبحك الله بالخير

وخرجت فتلقفتنى السماء بنجومها والحقول بأريجها والليل خاشع لأنه يحتضر . . .

(٧)

انني أكتب هذه المذكرات ، مقطعة ، على مهل،انتزع لها الوقت انتزاعا ، ولكنى لا ابدأ فصلا جديدا إلا إذ تلوث بعين الغريب كل ماسبقه كلمة كلمة ، فبهذا وحده يدخل الكاتب من جديد فى الجوّ الذى تركه ، ويتسق أسلوبه ، وتشرب فصوله كلها من معين واحد ، ولو ترك نفسه — وهو بشر — عبدا للساعة التى هو فيها لتباين قوله فى غير مطلب فنىّ ، فهو حينا نشط ساخر ، وحينا ضجر ملول ، وأحس القارىء الناقد أنه يسير فى طريق غير مستو ، بعضه معبد وبعضه ملىء بالحفر .

ولهذه التفلية نفع آخر ، فإنها تعين على اصطياد الألفاظ الكاذبة . ولبعض الألفاظ طبائع الطفيلىّ — تندس فى الكلام ، كأنما بدافع الغيرة توهم إنها خير لباس يصلح للمعنى فى حين أنها تفسده وتقلب جده مزاحا ومزاحه سماجة ، فيقصيها الكاتب ويمد يده بعد أن برأ من خداعها إلى الألفاظ الصادقة ، فتأتى له على استحياء : شأن كل حر أنوف لقى من قبلى صدا ، وقد يرى الكاتب أنه رفع بعض البديهيات إلى مصاف الحكم أو أنه أوجز قولا مغمض وكان يحسبه فى نجواه لنفسه بيّنا أو أنه أتى بأدلة

أخرى بعد البرهان القاطع وقد يرى أنه سقط فريسة سهلة فى حب لفظ واحد فهو يتكرر كل سطرين أو ثلاثة فيعجب كيف فعل هذا ويلوم نفسه ويجرى قلمه بإزالة هذا الشطط ولعله يزيله بشطط جديد أشد نكرا وحماقة .

وأنا حين أحببت اليوم أن أمضى بهذه المذكرات إلى غايتها لأستريح منها وتلوت ماسبق من الأوراق لم أتمالك نفسى من أن أتريث قليلا ، يعترضنى سؤال يجول بذهنى : أتراك أنصفت حقا وصف قريتنا كما هى تبك ؟ إن حديثك عنها هو الهامش لا المتن ، انك اقتصرت فى الكلام على بعض الناس دون بعض ، وخصصت باهتمامك الخان وحده ورواده ، لأنك واحد منهم — وهم شواذ ، وصفتهم أشتاتا لا يجمعهم رباط واحد ، شأن ضيوف « الألبوم » الغريب فى قفا القريب ، أوكهذه المرايا المضحكة فى حدائق الملاهى ، مصطفة جنبا لجنب تنطق للمار أمامها برسوم متباينة ، وما هى جميعا إلا رسمه هو ، فلم يخف وصفك للأشخاص — رغم تحايلك على التستر — من إنعكاس صورتك أنت وأجريت على ألسنتهم كلاما لا يتوقع من أمثالهم — وهو كلامك أنت ، وهذا تطفل أو غرور أو كلا الوزرين معاً .

وليس لى من إجابة على هذا السؤال إلا ابتسامة تذوب فى عتمتها حجته ، نعم ، لعلى أرهقت القارىء ، والناس تحب اليوم أن تقرأ للتسلية ، ولكنه لو منحنى بعض ثقته فسيرى بعد قليل أنه سيجد

تقليب «الألبوم» فيبدو له أهله فى صورة جديدة ويرى رباطهم ، فإن الكاتب يحب أحيانا أن يتخابث فيحجز فى يده بعض أوراق اللعب لا يكشفها إلا حين يحلو له ، متى قدر أن صبر القارىء قد تداعى أو أن لهفته قد بلغت أقصى مداها - ويعلم الله أنى ما أردت التخابث وإنما هكذا أنشق الدرب أمامى ، ولو أستطعت أن أجمع كل ما عندى فى صفحتين لفعلت ولو أهتديت إلى نسق آخر أكثر تسلية للقارىء لما عدلت عنه فكيف ينغص عليه من يطمع فى الفوز بوده ؟ واقتصرت على وصف بعض رواد الحان ، وتركت بقيتهم خشية الأطالة — لأنهم هم الذين وجدت فى حياتهم عبرة ، هم الشواذ ، مُقدّرٌ عليهم — وهذا دورهم المقسوم لهم فى دنيانا — أن تتركز فيهم حدة المتاعب والمشاكل الموزعة — حتى تبدد أثرها — بين العامة ، فهم خير من ينطق بما هناك ، وهم أيضا — وهذا عدل تحت قناع من الظلم — أول من يتلقى الصدمة إذا أصيب كيان المجتمع بهزة ، كالنتوء البارزة فى الجذع . عنوان سرّ الشجرة ، ومكمن الحياة لفروع جديدة ، أول ما يسقط إذا أريد تهذيب هذا الجذع.

أما بقية أهل القرية فهم ملحُ الأرض ، يكسبون رزقهم بشق الأنفس ، يكابدون كالحيوان من مطلع الشمس إلى مغربها عملا مرهقا تنجزه الآلات فى بلاد أخرى بأيسر جهد ونفقه فى وقت قليل . وليتهم بعد ذلك فازوا بما يقيم أودهم أو يستر عريهم — وهم مع ذلك قانعون . حاروا فى فهم القدر ، وتعليل أسباب الخلل :

وطال تساؤلهم متى تنتهى المظالم وتنعدل الأمور ويستقيم المعوّج ويعم السلام؟ — وهم مع ذلك صابرون،أصبح مطلبهم الأوحد أن يتركوا لأنفسهم ، لنسائهم وعيالهم ، لدوابهم وشقائهم ، لا يمانهم وخرافاتهم ، كل جديد فى الحياة عندهم ضئيل إذا قيس إلى قديمهم وأن أمنع الدروع هو الذى يلبسه من لا يبالى ، إذا قالوا « إنمـــا الأعمال بالنيات » عنوا بها « إنما الأعمال بخواتيمها » وإذا لم تُر وجوههم مبتسمة أغلب الوقت فلأنهم يضحكون فى سرهم من الخطيب والبهلوان ، والواعظ والمهرج . . خليها على الله !

(٨)

أعد المسرح منذ الأزل للحظة الموعودة ، ودُق الجرس ، ورفع الستار : المكان : المحطة وجسر السكة الحديدية مندس كالأفعى يشق الحيضان الخضر ، الزمان : بعد الفجر بقليل ، وكان الليل قد جرجر أذياله واختفى ، كأنه لم يكن أبدا ، لم يبق منه أثر ولو فى حجم البرغوث ، والنهار طفل راقد فى مهده ، تناغيه سماء تحنو عليه ، ناعسة العين ندية الأنفاس ، والنخل هش مذاب فى صبغة من الورد والضباب ، الجمهور : لا عبرة بالعدد ، بل يكفى متفرج واحد يختاره القدر .

وخرج سائق العربة الفرد مبكراً ليلحق قطار الفجر وفى قلبه دعاء بأن يكون الراكب المقسوم له كريما ذا وجه صبوح غير أنكد ، يستفتح به يوما يتعشم أن يعود فى نهايته إلى داره زائط الجيب مجبور الخاطر (وأهل بلدنا يستبشرون ويتشاءمون من أول سحنة تلقاهم فى الصباح) لقد أقعده المرض ، مرض حصانه لا مرضه هو ، عن العمل فترة ، إن تكن عند الحصان قصيرة فهى عنده طويلة ، وأصبح يجوع أولاده فى يوم ليأكل حصانه ويجوع حصانه فى اليوم التـــالى لتأكل أولاده ، لماذا لا يأكلون جميعا من مشنة أو مخلاه واحدة ليقتسموا الجوع والشبع بالعدل والقسطاس .

ووصل إلى نهاية الطريق الزراعى ، فوقف حصانه العجوز

لا يقوى على طلوع الجسر وأن تقوس ظهره وانشب سن حوافره في الأرض ، وجلس صاحبنا على سلم العربة كعادته كل مرة صابرا يرقب القطار فإذا سمع ضجته انطلق إلى الرصيف وتنافست عيناه وذراعاه في اقتناص قادم ، ولكنه في هذا الصباح لم يلبث أن رأى ناظر المحطة يخرج إلى الرصيف وفي يده حلقة المفاتيح وروزمة من الكمبيالات حتى أخذته غفوة واجتباه حلم ، لم يتبين منه في مبدأ الأمر غير أن روحه قد خفت إلى درجة الانفصال ، فهو - وجسمه ملقى في الفراش يراه كما هو رغم ابتعاده عنه - تارة طائر يرقد بصدره على الهواء كأنما يحمله جناحان خفيان ، وتارة معلق في الفضاء والدنيا كلها تمر حواليه مر السحاب - فجللته سعادة مبهمة وابتسم دون أن يحس بانفراج شفتيه ، ثم إذا به فجأة يرى نفسه يسوق عربته في طريق ينحدر قليلا قليلا حتى انتهى به إلى الترعة فوجدها جافة ليس بها قطرة ماء ، بل يغطيها حسك ملتف يبلغ قامة الرجل ، وهبطت العربة إلى قاعها وأطبقت عليه الضفتان ، كأنما يغوص بينهما ، وبدأ الحصان يتعثر ، ودب الخوف في قلبه ، وأخذ يتلفت وراءه يظن أنه يسمع زمجرة السيل يدركه بعد قليل ، ورأى الفلاحات يحملن بلاليص ضخمة كبيرة ، يهبطن إلى قاع الترعة ، فلما لم يجدن ماء كفأت كل منهن البلاص فوق رأسها وغاب جسدها داخله ولم يبق منه إلا قدمان تسيران بكفن من الصلصال . أراد أن يهتف إليهن « إرجعن! إرجعن قبل أن يدهمكن السيل ! » ولكن صوته لم يخرج من حلقه ولم تنتبه له واحدة منهن . ولم ينفع حنقه على الحصان لتعثره وبطئه في إزالة خشيته أن يكون هذا الأبكم — يخنقه

الشكم — أول غريق إذا علا السيل،فهو مورد رزقه،بل زميل العمر

وهب من نومه ، ينفض جسده وقد تندى جبينه رغم برد الصباح ، والتفت فرأى القطار قد ابتعد عن المحطة ، والرصيف خالياً تتواثب عليه العصافير ، وأخذ يرثى لنفسه ويندب سوء حظه ، وتمنى لو حمل القطار راكباً ولو كان المهندس المخمور فلو أنه قدم هذا الصباح لوفى نذره ودعاه إلى النزهة فى عربته مجانا فليس أقسى على نفسه من أن يرتد خلوا للقرية . ثم هم أن يرقى العربة ويستقر فى مقعده فإذا به وهو يودع المحطة بنظرة أخيرة يرى على الجسر رجلا ينبت من حيث لا يدرى واقفاً قد جمد فى مكانه ، يستقبل الطريق الزراعى ، كأنما يدرسه قبل أن يهبط إليه ولعل اتجاه نظرة السائق من أسفل إلى أعلى ، أو لعل طول ظل هذا الرجل يسيل من موطىء قدميه على الرصيف ، وينسكب فوق الجسر . وترقد رأسه فى الحقل ، لعل هذا أو ذاك هو الذى جعل القادم يبدو للسائق فى صورة رجل ضخم عملاق يسيطر على الكون ولكن شخصه ظل مع ذلك بيّنا محدّد الأطراف كصورة مرسومة بالفحم على صفحة الأفق والضباب ، كأنه ثقب مفتاح فى قفل باب لا تحتويه النظرة لضخامته .

تأمله مليا فوجده واقعاً قد وضع يده اليمنى فى جيب معطفه ،شأن من يخفى أموره . هادئا مطمئنا . ثيابه رغم بساطتها أنيقه ، منسجمة على بدنه ، رأسه مرفوعة فبانت له رقبة طويلة تنطق بأنه يأبى الضيم ، تساندها أنف مكتملة ، غير ضئيلة ولا فطساء ، لا توهبها مقارعة الخطوب، عريض الكتفين حمال أثقال، مستقيم الظهر لا ينحنى إلا لله . .

دقق النظر إليه مرة أخرى ، كأنما يعرف ملامحه ولكن لا يذكر من هو ، وجرى إليه ووقف أمامه وثبت القادم نظرته عليه برهة ثم خال للسائق أن عينيه تبتسمان كأنما يمتحنه ليرى هل تبين من يكون القادم أم لم يتبين ، (وأكثر العائدين بعد غياب طويل يجدون فى هذا الامتحان لذة ودعابة) فإذا بالسائق يسلم عليه سلام التجلة والاعزاز ويقول له : —

الأستاذ ! ؟ ما أذهلنى عنك أول الأمر إلا أن قامتك تعلو قامتى ، فقد غادرتنا وأنت صبى صغير ولم نرك منذ ذلك العهد ، ولكنك مع ذلك لم تخف علىّ ، ولم يكذبنى قلبى حين هتف أنه والله الأستاذ بعينه . أهلا وسهلا ومرحباً . قريتنا يعمها النور بمقدمك.

أجابه بصوت فيه غنة من يفكر بعقله وقلبه : —

— أما أنا فقد عرفتك لأول وهلة وعرفت حصانك وإن كنتُ وجدتك قد اشتعل الشيب فى رأسك وزاد نحولك ، أما حصانك فقد برزت عظامه شبرا آخر . .

قال له متبسطا : —

— لا عجب أن عرفتنى . فليس فى القرية عربة أخرى ، ونحن الفقراء نجمد على صورة واحدة وزى لا يتغير ، فإذا اشترى أحدنا ثوبا جديدا اختاره من قماش ثوبه القديم ولونه ، لا نسأل إلا الستر وحسن الختام .

— بل أذكر اسمك واسم أولادك كلهم .

— ولكن أكثرهم ولدوا لى بعد سفرك . .

— ومع ذلك أعرفهم وأعرف عددهم . .

ثم يسأله كيف عرف ذلك ، لكنه تخاذل ، بالرغم من أن الأستاذ يتبسم ، ويحدثه بألفة ، إلا أن السائق أحس بأنه رجل لا يحب الهذر ، ولا الإطالة فى الكلام ، ولا التهجم عليه بسؤال . والسائق كبقية عشيرتنا عاطفى يحب المؤانسة ورفع الكلفة .

وحمل السائق ما استطاع من حقائبه ، وبقيت حقيبة أخرى . فحملها الأستاذ والسائق يحلف عليه أن يتركها له وهو يأبى

واحتل السائق مقعده ولاذ بالصمت ، ولم يُدر للاستاذ رأسه وجذعه ، حين سمعه بعد قليل يقول ، وقد بدت القرية من بعيد ،

— لم تغب عنى فى يوم ذكرى هذا الطريق ومع ذلك فها أنذا أجده أقصر مما كنت أراه ، لعلى كنت أقيسه بخطو الصبى .

أراد أن يجرب مرة أخرى مبلغ حظه فى استدراج الأستاذ إلى الفكاهة والمزاح . فقال :ـ

— ونحن ياسيدى أصبحنا نقيسه بالقرش لا بالمتر ، فأهل قريتنا يقولون الآن ، المركز يبعد عنا ربع ريال .. وهو أجر السفر فى سيارات النقل .

فوصله من ورائه صوت كله جد !

— هذا دليل على أن الزمن أصبح لا قيمة له عندكم وأن الفقر هو الذى جعل القرش أساس كل حساب .. هذا سيزول .. هذا سيزول ..

وأخذ الأستاذ يشير إلى الحقول على الجانبين ويقول

— أليس هذا حقل فلان الذى باعه لفلان ؟ ويذكر من أخبار الصفقة وثمنها ما أكد للسائق أنه على علم بكل أسرار

القرية وكل كبيرة وصغيرة فيها ، فعجب لذلك كل العجب ، وسأل نفسه تُرى كيف كان يستقى معلوماته ؟ هل له فى القرية أشياع يمدونه بهذه الأنباء ، دون أن نعلم مَنْ هم ؟ وهل يظهرون وقد عاد الأستاذ ؟ وإذا ظهروا معه فما الذى يفعلون ؟

ومن شأن الابهام أن يحمل النفس على الخشية والخوف ، ولكن السائق أحس بنشوة عجيبة وأن القرية مقبلة على أمر عظيم ، تمنى أن يكون له من ورائه خير كبير ، فمن يرى راكب العربة كما رآه هو يؤمن بأنه يحب أن يعم القرية العدل والنظام ، وأن يده نظيفة وقلبه طاهر شفوق !

وذاع خبر وصول الأستاذ إلى القرية فسر له الناس وإن أصاب وكيله غم كبير ، وذهب للسلام عليه أقاربه ومعارفه وفلاحو أرضه وكثرت الإشاعات من سبب عودته وتناقلت الألسن أقواله فوجدنا فيها لأول مرة اهتماما بالغاً بالقرية وأحوالها وما لحق أهلها من ضنك وفاقة وما عمهم من ظلم وجور .

وذهبت أنا أيضا للسلام عليه وكنت عرفت وصفه من السائق وأثره في قلبه ، وكان بلغني أنه قضى معظم نهار الأمس في التجول بين مساكن القرية وأمضى معظم ليلته وحجرة مكتبه مضاءة وهو مكب على القراءة والدرس ، ومع ذلك وجدته في الصباح نضراً بساما واستقبلني ببشاشة وأجلسني إلى جانبه .

شيء خفي في هذا الرجل جذب إليه قلبي ، أحسست أنه قادم على تحمل عبء باهظ سيحرمه لذة الراحة والسكينة والدعة ، وأحببت أنا أيضاً أن تزول الكلفة بيننا ويفتح لي صدره ، فقد تملكني منذ جلست إليه شعور الأم التي تريد أن تقي ابنها كل سوء . وقد رأيته يفهم هذا مني ، ويود لو أنه حقق أمنيتي ولكني أدركت أنه التزم الصمت ، والانطواء على النفس والحذر قبل القيام بأقل خطوة ، لا لأنه لا يعرفني بعد ، بل لأن الدور الذي سيقوم به يفرض عليه — وإن تألم لذلك — نوعا من العزلة والترفع عن الناس ، فمن أراد أن تكون نظرته شاملة ليس أمامه إلا أن يترك

السهل ويرقى قمة الجبل ، حتى تستبين له روابط المرئيات ونسبة بعضها لبعض ، وهو ما يستعصى على النظرة القريبة .

ولم يمح فهمي لموقفه ما تملك قلبي من إشفاق عليه فكل رجل يجد نفسه — بدافع من غريزة الأنانية — يضع رغباته أولا فى رأس القائمة ، ويتخذها المحك الذى يمتحن به بقية الناس وآراءهم ومشاكلهم ،وقلت لعله إن فعل لم يجد قصصى كلها تهدف للتسلية وحدها .

لذلك جلست أمام الأستاذ مطرق الرأس لا أدرى ما أقوله ثم قمت وصافحته ، أنظر إلى عينيه الوديعتين فأرى فيهما مزيجاً من الطيبة والعذاب ، والجهد والصبر . والمحبة والنسيان من أجل ما هو أهم . .

ولم أتمالك نفسي من الألم — وهذا شأن الإنسان ! — حين سمعت أن الأستاذ قد قال عنى حين جاء ذكرى فى مجلسه .

— من هو ؟ آه ! هذا الصامت السارح ؟ ليس لى وقت أضيعه معه ومع أمثاله ، إننى أريد رجال عمل لا بطانة سمار . .

وتركنا الأستاذ بضعة أيام فى حيرة من أمره لا يفصح عن أغراضه ونياته بالتفصيل ، ثم أعلن أنه يدعو أعيان القرية إلى لقائه فى داره بعد الصلاة الجامعة فى يومها القادم ليتحدث إليهم عن أمر جليل . فلم يتأخر عن إجابة دعوته إلا نفر قليل. وجلس الحاضرون فى حلقات من خلفها صفوف ، فالأعيان هم أيضاً مقامات . .

وجلست أنا فى ركن قصى .

ولما اكتمل الجمع واستنفدت التحيات والمجاملات وما أكثرها عند عشيرتنا ! — وقف الأستاذ ومن حوله نفر من شباب قريتنا

نعرفهم بالجد والصرامة والاستقامة والكتمان ، وأدركت أنهم هم الذين كانوا على اتصال به ، يوالونه بأسرار القرية ، وساد الصمت وشخصت إليه الأبصار وتعلقت به الأسماع ، وقال فى صوت يكاتم هياج عواطفه الجياشة : —

— لقد أعملت فكرى طويلا كيف أقدم لكلمتى ، وأينما درت وجدت أن لا مفر من أن أتحدث عن نفسى ، وأنا أمقت ذلك — علم الله — مقتاً شديداً ، ولكن قضت طبائع البشر ومعاملاتهم أن لا تفريق بين المبدأ وصاحب المبدأ ، بين القول وقائله ، فكما أن الناس قلما ينتفعون بكلمة حق تجيئهم عفوا على لسان الباطل الذى لا يخفى عليهم ، فكذلك قلما يصيبهم مكروه من لفظ باطل يدسه الشيطان بخبثه فى كلام المفطور على المحبة والعدل إن أخلصوا إيمانهم به ، فأنا أحب قبل أن تزنوا كلامى أن أطمئنكم على ما وراءه من نية وقصد ، فأنا ابن هذه القرية ، بها رضعت وحبوت ، هى موطنى ومستقرى ، إليها أعود وبها أدفن وأنا واحد من عشيرتكم ليس بينكم رجل إلا تربطنى به صلة القرابة أو النسب أو الصداقة والتعاطف ، فهل يجوز بعد ذلك أن يخامر الشك من له أقل مسكة من العقل أن أتعمد خداعكم أو استغلالكم ؟ إن الضرر الذى يصيبكم يلحقنى ، والخير الذى يعمكم يشملنى ، حتى الاثرة والدفاع عن النفس يقتضيان علىّ بأن أحب بلدى وعشيرتى وأن أسعى جاهدا لينعما بالسعادة والرخاء ، لا أطمع لنفسى فى منصب أو مال أو جاه أو أصيب خيراً أمتاز به عنكم .

ولكن النية وحدها إن لم يصحبها العمل جنين لم يولد ، كل كلام

عنه فضول ، ملاحته أو دمامته ليست لنا بل لنفسه ، وكل عمل لم يسبقه اتخاذ الأهبة والاستعداد حماقة وتهور وادعاء . وما نخسره من أضراب القادرين على العمل أهون بكثير وأسهل تداركا وعلاجا من الضرر الذى يصيبنا من عمل المتسرعين .

استبان لى هذا حين فرغت من مراحل التعليم وأزمعت العودة إليكم ، وكان غيابى يؤجج محبتى لبلدى وأهلى حتى بلغت حد الوله وملكت على قلبى ولبى ، هى ضجيعتى فى أحلامى ، وهى رائدى أينما سرت ، ولكن كيف أخدم بلدى وأجاهد لرفع الظلم عنها ، إنه ظلم عتيق متغلغل متشعب . ومكثت الشهور الطوال حبيس حجرتى لا انقطع عن الدرس والتأمل فاستبانت لى الحقائق ووضح الطريق

وقلت مادامت النية صادقة ومادام الاستعداد قد كمل ، فقد هانت الصعاب ، وكان أول ما فعلته أن خلوت لنفسي وجئت بورقة وقلم وقلت لأكتبن ما تشكو منه القرية مسلسلا فى جانب . لنحصر موضوع البحث ، ونكون فى الصورة ، وليسهل ذكر العلاج الناجح أمام كل داء ، ولم أكد أفرغ من حصر الأدواء حتى تبين لى أنها تفاصيل لا علاج لها مادام الأساس الذى تقوم عليها جميعا هو منبع الفساد هذا الأساس هو ما قد قر فى أنفس أهلها من شعور الضعة والهوان ، والتسليم والسكوت على الظلم . وإيثار الراحة والسلامة ولو كان فيهما الذل ، على الجهاد ولو كان فيه بعض الفداء والنكوص عن المطالبة بالحق وإهمال أداء الواجب ، وهذا هو الضياع بعينه .

سأعمل إذاً جاهدا على بث شعور العزة والكرامة فى قلوب

أهلنا وأقناعهم بأن خلاصهم فى الشجاعة فى المطالبة بالحق وأداء الواجب على حد سواء.

وقد اعتزمت أنا وأصدقائى أن نحمل الناس على سلوك هذا الطريق بالحسنى أول الأمر، وإلا فبالزجر والشدة وستتطوع منا جماعة لمراقبة الناس فى المتاجر والاسواق، بل فى بيوتهم إذ ينبغى لكل معوج أن يستقيم، ولا يقبل منه عذر، وأن ينصرف الرجال إلى عملهم معرضين عن اللهو والعبث، فالوقت ضيق والشوط أمامنا طويل.

ولما فرغت من الأساس رجعت إلى التفاصيل التى كتبتها فى القائمة فوجدت أن وصف العلاج لكل حالة لا يحتاج إلى تفكير طويل وجرت يدى بذكر العلاج الناجع أمام كل حالة، فى جلاء لا يعتوره شك أو ريبة.

فأول المظالم هو ما يعانيه الفلاح فقررت أن أتولى أمورهم وأفوز لهم — بفضل وقوفهم ورأيى — على تحديد الايجار بمبلغ معقول لنوفر فى أيديهم المال، وسأكون أنا أول من يطبق هذا النظام الجديد على نفسى، وسأحصل لهم أيضاً على موافقة الحكومة على أن تبيعهم ما تملكه من أراض واسعة فى زمامنا لقاء ثمن زهيد يدفع على أقساط طويلة — وسألاحق الملاك حتى يقتدوا بى فى بناء دور جديدة للفلاحين، يمد لها الماء والنور

واخر مظالم القرية عهدا هو حرمانها من السكة الحديدية وسأسعى لرفع هذا الظلم بكل قواى وسأنجح بأذن الله.

ثم ينبغى إغلاق الحان لأنه بؤرة فساد ومدعاة لانصراف الرجال

عن بيوتهم ، فهو يجمع الضال والعابث على الخائب والسارح (وهنا شعرت أن الأستاذ يثبت نظرته علىّ) وينبغى أن يعمل كل عاطل، وأن يسدد كل مدين دينه ، وأن يتوب كل زوج فاسق ، وكل ولد عاق ، وأن يصان شرف كل رجل ولو رغم أنفه ، لئلا يكون قدوة سيئة لغيره — فإن حماية الأخلاق من شأن الجماعة قبل أن تكون من شأن الأفراد .

هذا ما أريد أن تعينونى عليه ، ومن أجله جمعتكم .

مَنْ منا يأبى أن يستجيب لداعى الخير والفلاح ؟ هب الجميع والتفوا بالأستاذ واصدقائه ، يبايعونه على السير وراءه واتباع مشورته ونُصحه ، ثم أخذ بعضهم يهنىء بعضا بهذه الروح الجديدة التى ستعم القرية وكل منهم يحسب فى قرارة نفسه ماذا سيكسبه أو يخسره ، مفضلين التريث إلى أن تنجلى الأمور .

من طبعى أننى أحب الراحة واستمرىء الكسل ، وقد أعدل عن النهوض إذا مددت قدمى فلم تجد الخف فى مكانه وكفى بالكسل راقضا على الصبر ، والصبر سيد الفضائل وأشقها منالا ، وإذ كنت كذلك فإننى أكره اقتحام الأبواب ، ونبش الأسرار ، وتتبع الأنباء والإشاعات ، ولكنى وجدت نفسى فى الفترة التى أتحدث عنها ، يدب فىّ نشاط لم آلفه ، هو أشبه شىء بالقلق ، فأعصابى متوترة ، تناوش روحى كوجع الضرس ، ذبذبة وهـــزات ، وأصبحت لا أطيق الاستقرار فى مكان ، وزاد تلفتى وتطلعى ، وعرفت الأرق ، وكم من ليلة هممت فيها — ثم كففت وهمى — أن أطل من النافذة لأتسمع ، يخيل إلىّ أن الجو كله مشحون بنذر ، وجعلت همى أن أدور على أصدقائى وأصحابى لأطمئن عليهم فأجدهم فى أتم صحة وسلامة ، ثم لا ألبث أن أعود أدق بابهم فى المساء أو فى الصباح من غد ، كأنى أخشى كل مرة أن أتزود منهم النظرة الأخيرة ، وصرت لا أسمع عن خبر إلا جريت له ، اريد ان أكون فى كل جهة ، وأن أشهد كل مايحدث ، كأنى مكلف من قبل قوة خفية طاغية بتسجيل تاريخ تلك الأيام .

وإذا بى انهد فجأة ، افترسنى ، ولا أدرى كيف — مرض لئيم مقسترامتص عافيتى واستنزف قواى وقيدنى بالفراش وكان عذابى لانقطاعى عن الحركة وتتبع أحوال القرية يشغل ذهنى ، أشد ماأعانيه

وجاءنى طبيب القرية ، وهو رجل طيب ، لا يزال يغسل يديه كما كان يفعل أطباء أبائنا وأجدادنا - قبل الفحص وبعده ، ورأيت من

نظرته أنه حكم بأن دائى خطير ، وأن هلاكى أقرب إلى الاحتمال من شفائى ، ونصحنى ، وهو يطمئننى ، أن أغير الهواء وأسافر للعاصمة فيتاح لى أيضا — كما يقول — أن أعرض نفسى على أطبائها الأعلام

وهكذا غادرت القرية رغم أنفى — نادبا سوء حظى ، وأكون كاذبا إذا زعمت أن الخوف من الموت لم يخل قلبي . أو أن انشغالى على الغير ظل على حاله مع انشغالى على نفسى ، ولكنى عالجت الخوف بالتوكل على الله ، ولم أثر حين رأيت انشغالى على القرية ينقلب من انشغال اللاعب فى الميدان إلى انشغال المتفرج البعيد ، وشتان بين الاثنين .

ودخلت إحدى مستشفيات العاصمة وأنا لا أتمالك نفسى من الابتسام ، كنت إذا نزلت من قبل فنادقها المخصصة للطبقة الوسطى ، أحسست ، والوحدة ترهقنى — أن حجرة الفندق فى عصرنا كبائعات الهوى لا تفتح أذرعها إلا لمن يريد الانمحاء فورا ، فإذا طلب منها الأمن والدعة والسكينة طردته هذه الأذرع ذاتها بغير شفقة وكنت أقول لو خيرت لاخترت النزول ولو أننى غير مريض فى إحدى المصحات ، فهى انظف وأرخص وأرحم ، ومن تحدى القدر فأصابه بالمكروه الذى تشوف فلا يلومن إلا نفسه .

ودفعنى طبيب الأمراض الباطنية إلى طبيب الأسنان ، وهذا إلى طبيب الأشعة ، وهذا إلى طبيب الأنف والأذن والحنجرة ، وهذا إلى طبيب القلب وهذا إلى الجراح ثم قالوا لى ينبغى لك السفر إلى بلد أجنبي فلا شفاء لك إلا بجراحة دقيقة ينفرد بعلمها طبيب من أهل ذلك البلد . وإذا بى لا أغادر القرية وحدها ، بل أغادر القطر كله .

وغبت أكثر من سنة . .

الكتاب الثانى — اليوم

(١)

أول نبأ وصلنى عن القرية بعد أن عدت إلى العاصمة تلقيته من فم صراف التذاكر ، سألته تذكرة لمحطة الجسر ، فالتفت إلىّ مندهشاً وقال : —

صح النوم ! ألا تعلم أن هذه المحطة قد ألغيت منذ شهور واستبدلت بها محطة أخرى ؟

فأدركت أن الأستاذ قد نجح فى تحويل الخط إلى قريتنا ، وأخذت التذكرة أتأمل اسم قريتنا عليها مبتسما متعجبا مسرورا ، واحتللت مكانى فى القطار ، وعلى لسانى ألف سؤال ، ولكن نفسى هادئة لا تعرف القلق ؛ فقد عاد لى مع الشفاء طبعى القديم ! حب الراحة واستمراء الكسل . !

ومضى أغلب الطريق وأنا سارح الذهن ثم أخذتنى غفوة لم تغلب الشوق فإذا بى استيقظ من تلقاء نفسى والقطار يهم بالوقوف على محطة قريتنا .

ما شاء الله ! ما شاء الله ! . متى أقيم بناء المحطة ومنزل الناظر والرصيف وكشك الاشارة ؟ ولكن أين أنا ؟ ألم يكن هنا مكان السوق ؟ وأين ذهب السوق ياترى ؟ ما أجمل هذا الميدان الذى خرجت إليه ، ووقفت أتأمل ما حولى . ولا تستبين عينى معالم القرية ، ألم يكن هنا منزل تاجر الغلال ؟ أين ذهب ؟ ودكان الحلاق ؟ قد اختفى ، وأين المنعطف الذى يقف عنده بائع العرقسوس ؟ كان

هنا صف من المنازل القديمة المتواضعة تتوارثها أسر جيلا بعد جيل أين هي ؟ هل تفرقت جيرتها ؟

ومر بي عامل فى رداء أصفر يجر عربة يد . ما هذا الزى ؟ فلما استوضحته علمت أنه عامل النظافة فى المجلس القروى الجديد ثم استطرد يقول :

— لم يكن ينقصنى إلا أن أكلف أيضا برفع مخلفات القطار ! أن الركاب لا يستحون ، لا يحلو لهم إلا فى السفر أكل البرتقال واليوسفى ؛ بل إن بعضهم يمص القصب ، ويلقون مخلفاتها من النافذة بلذة عجيبه . وماذا يهمهم . ومن الذى يستطيع الامساك بتلابيبهم وهم فى قطار يمرق كالبرق ! وما قولك فيمن لا تمشى بطنه إلا إذا وقف القطار ؟ لقد نُبِّه علينا أن نظافة المحطة عنوان القرية وسمعتها ؟ آمنا وصدقنا . ولكن أين مصلحة السكة الحديدية ؟ لماذا نجد نحن وتهمل هى ؟ ألم يكن الأولى أن تنفذ هى تعليماتها أولا ، أم نحن المكلفون بتتبع أخطاء الغير لإصلاحها ؟ كان العدل يقتضى ، إن كان هناك عدل حقا كما يدعون — أن تعين مصلحة السكة الحديدية عاملا من عندها يتولى نظافة المحطة والشريط . إن هذه المصلحة ينبغى قلبها رأساً على عقب وإعادة تنظيمها . . يا سيدى أنا مرهق بالعمل ، أكنس الشوارع وأرشها ، وهذا جهد يهد الجبال وهل تحسب أن أهل القرية قد كفوا عن إلقاء القمامة فى الطريق ؟ هم هم طبعهم لا يتغير والعياذ بالله . أفليس من الظلم أن أكلف أنا أيضاً بكنس المحطة ! أقول لك الحق أنى بعد أن كنت أكنسها مرتين فى اليوم طبقا

للتعليمات — أصبحت لا أكنسها إلا مرة واحدة أول النهار ، وعلى عجل فكل العمل عندنا سلق بيض وتسديد خانة . المهم أن يوضع لنا كادر ينصفنا وتزاد علاوة الغلاء .

ولما استنفد شكايته والإشادة بمجهوده تنبه فيه حب الاستطلاع فسألنى من أين أنا قادم فلما أنبأته أننى راجع من بلد أجنبى من وراء البحار لم يسألنى عن أهله وجوه عجائبه بل بادرنى متلهفا بسؤال واحد : —

— كم يبلغ مرتب العامل مثلى فى هذا البلد وكم ساعة يشتغل .

وقفت أمامه حائراً متردداً ، أسأل نفسى هل أتكلم أم أصمت ، ثم توكلت على الله وقلت له : —

— ماذا كنت تشتغل قبل تعيينك فى المجلس القروى ؟

— صبى كلاف فى زريبة تاجر الألبان .

— أظنك كنت تدعو الله صباح مساء أن يتوب عليك من كنس روث البهائم حتى ولو اشتغلت كناسا ؟

امتقع وجهه قليلا وتمتم يقول :—

— من أين تعرف هذا ؟

— وأظن مرتبك قد تضاعف ، وهذه الملابس تصرف لك بالمجان ؟

فقال غاضباً وهو يولى عنى .

— وما شأنك أنت حتى تحرمنى من تسلية الشكوى ؟ ومن يدريك إذا رضيت وأغلقت فمى أن أن ينسانى المجلس القروى ، ويمر بنا دور الترقية فيتخطانى ؟

(٢)

تركته وأنا أحمد الله أنى لا أسكن هذا الحىّ الذى أمحى من الوجود ، وأن منزلى بعيد عن العمران ؛ قانع بجوار الحقول ، وسرت قليلا لا أنقطع عن التعجب والتلفت شمالا ويميناً فإذا بى أجد نفسى أمام مبنى جديد فوقه لافتة تعلن أنه « قوة المطافىء » ورأيت جنديا ضخم الجثة مفتول الشارب على رأسه خوذة لامعة - إن منظره يخيف ! — واقفاً بالباب مربد الوجه كأنما يتملكه غيظ شديد . . فانعطف قلبى له ، واقتربت منه ، وقدّمت له لفافة تبغ فتناولها بأنفة كأنما هو الذى يجود بها علىّ . ولم أكد أسأله عن أحواله حتى انفجر فىّ يقول :—

— أنت أول من يسألنى عن الأحوال ، لاشك أنك غريب فى هذه القرية . فإن أهلها والمجلس القروى ، لا يبالون بنا كأننا لسنا فى خدمتهم قلت له وقد مهد لى عامل النظافة طريق الصبر :—

— لعل لكل إنسان مشاغله وعذره .

أجابنى محتداً :—

— هذه هى الأنانية التى كانت سر شقاء هذه القرية وتأخرها ، فإذا لم تزل من القلوب ، ونحن فى عهد الإصلاح — فكأننا يابدر — لا رحنا ولا جينا . .

— وماهى متاعبك ؟

— آه ! تسألنى عن متاعبى ؛ ولكن من أين أبدأ ؟ إن شعورنا

لأول مرة بالمسئولية هو الذى جعل لكل منا رأيا فى أحوال هذه القرية ، ولو تنازل الأستاذ وسألنى لكنت دللته على الصواب ، ولكنه مشغول لا يفرغ لأمثالنا .

— الأستاذ ! وما شأنه فى هذا ؟

— ألا تعلم أنه هو عمدتنا الجديد ؟

— وأين العمدة السابق ؟

— هو مضاع الآن فى غمرة الناس بعد أن سقط فى الانتخابات وأصبح لا أحد يدرى أمره . سمعت أنه مغموم ، مع أنه رجل عجوز ، ميسور الحال ، وأولى به أن يستريح ، فماذا يطلب أكثر من ذلك .

فعجبت للإنسان يوصى غيره بالقناعة ، ولا يقنع هو . . ووقفت هنيهة صامتا ، ثم توكلت على الله ، وسألته .

— وما هو الرأى الذى كنت تريد أن تصارح به الاستاذ ؟

— الرأى الذى أراه هو أن الأمور لم تسر بترتيب منطقى معقول . كان ينبغى قبل مرور السكة الحديدية وسط القرية أن تكلف مصلحة المبانى بالكشف عن دورها ومنازلها لتزيل ماهو آيل للسقوط منها ، لا يحتمل رجة القطار ثم تدعم ما يمكن انقاذه من المنازل المجاورة للشريط ، ولكن هذا لم يحدث ، وإنى أطالب بمجازاة مصلحة المبانى لاهمالها ، أو أن تزال منها العناصر الفاسدة المسئوله عن هذا الإهمال . هناك أشاعات كثيرة عن اتفاقات غير شريفة بين المصلحة والمقاولين ، وليس هناك دخان بلا نار ، وعلى رأس من يقع هذا الإهمال ؟ على رأسى أنا . . ولا أحد يدرى .

تصوّرا إنني منذ إنشاء القوة لم انقطع عن العمل لا ليلا ولا نهاراً ، ياسيدى أنا مرهق . فنحن مكلفون برفع أنقاض المنازل التى تهدمت ، أنظر إلى يدىّ ، هل ترى الجروح التى ملأتهما ؟ لقد تهدم أكثر من عشرين منزلا ، هذا إلى جانب الحرائق التى دمرت أجران التبن من شرر القطار ، ونحن أربعة ، أربعة فقط ، فى قوة المطافىء وكان ينبغى أن يعمل فيها عشرة أو عشرون ، ولكن يقال لنا انتظروا الميزانية ، ونحن ننتظرها . . ولكن هيهات !

— وهل قدمت تظلماً للمجلس القروى ؟

— نعم أكثر من مرة ، ولكنه مشغول بألف مسألة ، فكيف يفرغ لنا !

— أصبر ، سيأتى دورك .

— مِت ياحمار إلى أن يجيئك العليق . .

وشدنى الجندى من يدى وسار بى حتى وقفنا عند الشريط وأشار إلى صفوف المنازل القائمة على جانبيه ، قد اسودت جدرانها واختفت أصص الزهر من نوافذها وقال :—

— هذه المنازل كلها متداعية ، وستنهدم واحداً بعد آخر ، فكيف نعمل وماذا نفعل ؟

— قد يكون الخير فى انهدامها لتنشأ مكانها ميادين وشوارع جميلة أو تبنى محلها منازل جديدة نظيفة ، فهذه سنة الكون .

— ومن يضمن أن يفرغ لمجلس القروى من المنازل الجديدة قبل أن تنهدم القديمة ، أليس هناك من يسأل أين يذهب الفقراء سكان هذه المنازل ؟

— بحسب رأيك إذاً كان ينبغى قبل مد الخط ، أن تبقى جميع المنازل كما هى ، ثم تبنى منازل جديدة ، لتُهد القديمة ثم يمر خط السكة الحديدية . ولو صبرنا إلى أن يتم ذلك كله لما مرّ الخط ولبقيت المنازل القديمة على حالها . المهم أن نبدأ ، ووسائل العلاج سهلة بعد ذلك ، وسيأتى علاج كل مسألة فى أوانها ، ومسألة إستيعاب دور القرية لسكانها ليست مشكلة اليوم ، بل نحن نعانيها منذ زمن بعيد . . ولعلك لا تعرف هـــذا لأنك لست من أبناء القرية ، فيما أرى .

باخ غضبه ، وحار ماذا يقول ، فالمشكلة عنده أعوص من أن يهتدى لحلّ لها ، وانقلبت كبرياؤه إلى استخذاء وهو يقول لى :— تصور ! المجلس القروى يساوينا فى الكادر مع عمال النظافة ، فأين الانحناء لجمع القمامة ، من الدخول فى اللهب والأسقف والجدران تنهدم . . فهل هذا عدل ؟

(٣)

وخلفته وقد وقف بالباب من جديد مربد الوجه منتفش الصدر ، مصعر الخد ، مزهوا بما يضمره من أراء ، معتزا بما هو قادر عليه من انتقادات ، وسرت نحو منزلى ، فقد آن لى أن أعود إليه وأحط عنده عصا الترحال ، ولكن فى ذهنى سؤالا مبهما لا أتبينه . ماهو ؟ أحسست أن شيئا ينقصنى وأخذت ارتب تفكيرى وأصور نفسى وأنا قادم فى مرة سابقة من سفر وأقارن بين حالى عندئذ وحالى اليوم . أه . أه . تذكرت أين سائق العربة الفرد؟ سمرت قدماى ، ووجف قلبى خشية عليه ، كيف أصبح بعد أن ألغت المحطة القريبة معين رزقه ، أخذت أتلفت شمالا ويمينا ، وسألت بعض الناس عنه ، لا أريد أن أقصد دارى قبل أن ألقاه واطمئن عليه .

وأخيرا وجدته عند باب المسجد ، جالسا على عتبته محنى الظهر ، مغبر الوجه ، رأيته يستجدى الناس . فاقتربت منه وربت على كتفه فرفع إلى نظره فلم يكد يرانى حتى هب واقفا وعانقنى واغرورقت عيناه بالدموع . . وقال لى : —

— لا تحسبنى أبكى على نفسى ، انى حين دهمنى القطار أنا أيضا — فقد دهم عددا من أبناء قريتنا ، بعضهم مات صريعا تحت عجلاته ، ومنهم صبية فيهم من فقد ذراعه ومَنْ فقد ساقه وستراهم بعد أن تندمل جراحهم على باب المسجد يتكففون الناس . . حين دهمنى القطار أنا أيضا ونزلت علىّ مصيبته وانقطع رزقى لم أسخط على

الزمان ولا على من عدل الحظ. وإنما كان سخطى على حماقتى أنا وسوء تدبيرى، بلغت من العمر آخره ولم أحسب حساب اليوم الأسود، وكان ينبغى لى على كل حال أن أتقاعد، وأجد مما وفرت من المال مايقينى ذل الحاجة، ولكنى كنت اهزأ بالزمان. وأمقت الحرص، وأكثر من التدلل على الله. فهزأ بى الزمان، وانتقم منى الحرص، وغابت عنى رحمة الله.. وإنما بكائى على حصانى العجوز لو أصابه مرض مفاجىء فمات لما تفطر قلبى عليه، بل لعل قلبى ينبسط حين أجده قد زايل الشقاء والتعب واخلد للراحة تحت التراب.. ولقلت عمره وانقضى ولكنى مكثت أياما طويلة أرقبه وهو واقف أمامى، على سيقان كأعواد الكبريت، ركبه خلاخيل، فوقها بطن شخيته، وظهر مقوس ورأس ناحلة وخشم يعشش فيه الذباب.. يذوب جسده من الجوع شيئا فشيئاً حتى أصبح جلدا على عظم ومع ذلك لم يكن غاضبا على بل كان ينظر إلى بعطف وحنان كأنه يرثى لحالى ولا يريد منى أن أرثى لحاله.. ثم نفق ولم أشأ أن ألقى بجثته فى النهر، بل دفنته بجوار الجسر، بالقرب من شجرة الجميز.

— ولماذا لم تبعه وتنتفع بثمنه؟

— وأين من يشتريه؟

— لقد رأيت عربات نقل كثيرة محملة بالأحجار والطوب والبناء فى القرية أصبح حركة لا تنقطع!

— ماذا دهاك وما الذى غيرك؟ لم يكن عهدى بك كذلك، تقول للأعرج اجرى؟ افيرضيك بعد صحبة العمر أن أسلمه لمثل هذا الشقاء ولو فعلت لما عاش أكثر من أسبوع إننى كنت دائما إذا

خُيرت حين لا مفر من الظلم . بين أن أظلم نفسى أو أظلم غيرى. فضلت دائما أن أظلم نفسي . . وشتان بين أن تنام متحسرا وبين أن تنام فى عرق الخجل .

— وأنت ماذا تفعل ؟ تعال أقم فى دارى ماشئت ، وما يكفى طعام واحد يكفى اثنين .

— إنك ستحتملنى يوماً واثنين ولكن ستضيق برجل عجوز مثلى فى نهاية الأمر ، إن حملى ثقيل فدعنى لقسمتى ونصيبى ، ومادمت سأعيش على الإحسان ، فسواء عندى أن يكون إحسان رجل واحد أو رجال عديدين ، كما هو حالى اليوم، بل لعل إحسان الذين يجهلون أمرى أخف وقعاً على نفسى من إحسان من يعرفنى وشهد سابق أيامى .

— إنى لا أحب منك هذا اليأس . لماذا لا تقول أن القدر قفل باب الرزق ليفتح لك بابا أوسع منه ، قد يكون من ورائه خير كثير لك ، لم يكن فى حسبانك ، فإن إنشاء المحطة قد فتح الأبواب لأعمال لم تكن تعرفها القرية من قبل ، لا أطلب منك أن تشتغل حمالا تنقل أمتعة المسافرين ، فقد يُرهقك هذا العمل . ولكن التجار المصدرين والمستوردين أصبحوا يحتاجون لمن يشرف على شحن بضائعهم بالقطار وتسلمها وأنت تألف المحطة وموظفيها فهذا عمل سهل لو جربته لعاد عليك بأكثر مما حرمت منه .

— يا أخى ! أتطلب منى فى مثل هذا العمر أن أتبدّل ؟ إننى كنت أسوق العربة وأنا مغمض العينين ، أعرف من وقع حوافر الحصان أى مكان بلغناه ، أعرف كل طوبة وحجر ، كل من أمر

بهم يسلمون على وأسلم عليهم بأسمائهم ، عشت هكذا ، لا سنة بل ثلاثين سنة ، فهل تظن من اليسير على أن أتلبس مهنة أخرى قد أقابل فيها الأرذال من الناس ممن لا يعرفون قدرى وماضىّ ؟ سينظرون إلىّ نظرتهم إلى دخيل منافس . وقد يكون فيهم من الشباب من يضيق بشيخ عجوز مثلى أشد الضيق .

— إننى سأكلم لك المجلس القروى

— إذن جاء الفرج ، دع المجلس القروى ياعم فى حاله ، من أكون حتى يفرغ لى ، وما أنا إلا رقم فى عمود مسلسل ؛ ليس المطلوب أن تقرأه رقماً رقماً ، بل أن تعرف حاصل جمعه ليطرحه المجلس القروى من حاصل جمع عمود آخر ، فيعرف صافى رصيده فأنا وأمثالى من المطروحين .

— ولكن الأستاذ لا يخيب رجائى إذا حدثته عنك

— ألا تعرف أن عهد الوساطة والشفاعات قد انتهى ؟

توليت عنه وأنا آسف لعجزى عن إقناعه ، وعن مساعدته ، وعن التفكير فى مخرج لأزمته ، تركته لخالقه فهو به أرحم ، وأعجبته بالرجل وزاد قدره عندى ، لم تنبس شفتاه — رغم محنته — بكلمة نابية ، لم يسب أو يلعنَ ، لم يلق التهم جزافا

ولكن لم أكد أسير خطوتين حتى نادانى وجاءنى يقول : —

— لعلك لم تعلم بعد أن المجلس القروى قد قرر فى جلسته الأولى إغلاق الحان ، لأنه أس الفساد فى القرية ، وقد تشتت أصدقاؤك وقبع كل منهم فى منزله ، كما يدخل الضب إلى جحره .

فقلت له متلهفاً : —

ـــ وأين صاحب الخان ؟ إنى أريد أن أراه .

فقال وعلى شفتيه ابتسامة نصفها حزن ونصفها خبث ومرح :ـــ

ـ إذا مررت بالقرافة فاسأل عنه تجده هناك .

فظننت عندئذ ـ لغفلتى ! ـ إن صاحب الخان قد اختار لمسكنه الجديد واحدا من تلك المنازل المتواضعة التى تحيط بالقرافة ، وعزمت على لقائه ، ولكنى أجلت زيارته للصباح ، فقد كنت تعبا وأحببت أن أهرع لدارى ، فألق كلبى الأسود . الذى اشتقت إليه وأن أخلو لنفسى ، وأن أتسلى بورق اللعب وحدى وأفتح الفال ! وهو ما يسميه أهل البلد الذى استشفيت به « لعبة الصبر »

(٤)

كان فى عزمى أن أخرج مبكراً لأجول فى القرية ودساكرها وأشاهد حالها الجديد وأسمع حديث الناس ولكنى لم أقو على تنفيذ هذا العزم من قبل أن ألقى صاحب الخان ، بعد أن تحركت نفسى لرؤياه. فذهبت ناحية المقبرة أبحث عن منزله فلم أجده ، وسألت عنه فقيل لى :

ـــ إنه لا يسكن هنا ، ولكن إذا دخلت المقبرة فاسأل عن التربى فإنه هو .

سبحان الله ! يشتغل تربياً ماذا جرى له ؟ ولماذا اختار هذه المهنة دون سائر المهن . هل قال لى من قبل شيئا نسيته يفسر سر اختياره لهذه المهنة ؟

ودخلت المقبرة فوجدت صاحب الخان جالساً على تركيبة من الرخام فوق قبر ، قد أحنى رأسه على صدره ، وتندى جبينه بالعرق ، ورأيت أن بدانته قد زادت ، وبرز كرشه ، وابيض شعره

فلما وقفت أمامه رفع إلىّ وجها ممتقعا وعينين محمرتين ، وثبت نظرته علىّ قليلا ، ثم صرفها عنى ، وأخذ ينكث بعود فى الأرض أصبح ليس للزمن وللحوادث عنده حساب ، كأننى فارقته أمس فى حانه ، وكأن شيئا جديدا لم يقع بين اللقائين ، فحرت كيف أكلمه ، ومن أين أبدأ حديثى ، كان هو الذى بدأ الكلام بصوت خافت أخذ يعلو شيئا فشيئا .

ـــ لا تأس علىّ ! يوم أغلقت الخان وجدت نفسى أمام مشكلة

لا تزيد ولا تنقص عن بقية مشاكل الناس . إذا ألغيت كل شيء سواها ووقفت أمامها مشلولا ، وسمرت نظرتك عليها بدت لك داهية دهماء ، لكنها إذا ربطتها بما قبلها وبما حولها لم تزد عن أن تكون حادثة بلهاء لا خطر لها ، لو أرسلت نبأها للصحف جميعا ، مايعنى منها بالفجائع ، وما يعنى بالمهازل ـ لما نشرتها صحيفة واحدة ـ كان علىّ إما أن أفارق القرية ، وهذا مالا أستطيعه ، لأننى أكره الهجرة ، وإما أن أنهزم وأجد طعم البطالة مرا حلوا فى وقت واحد ، وهذا ما أنفت منه ، وإما أن أبحث عن عمل جديد ، ومن حسن الحظ أننى لم أتعب كثيرا ولا طويلا فى البحث عن هذا العمل ، فقد مات وقتئذ تربى القرية فأسرعت وقبلت الحلول محله ، وهو عمل ليس عليه تزاحم كثير ، ومكسبه لا يقل عن مكسب بقية الأعمال ، فلم أكد أبدأ العمل حتى أحسست أننى خلقت له ، وأنه خلق لى .

— كيف؟ هل يعجبك هذا العمل ؟ دفن الموتى ! يراك الناس فتشيح بوجوههم وتنقبض قلوبهم وقلما سلم عليك إنسان أو آكلك إلا سأل نفسه ، ألا تزال فى يده رائحة الجثث ؟

صمت قليلا ثم نظر إلىّ وقال .

— إن لهذا العمل أسرارا لا تعرفها ، وقد أدركت بفضله أشياء كانت غائبة عنى ، أشياء ينبغى أن نفطن لهـا . إننا نولد لنا معدن خام فج ، وقد خلقت الدنيا لتصهره وتصقله ، فكيف لا تغبطنى على أننى لا أخرج من الدنيا كما دخلتها ـ لا علم ولا تجربة .

لا أدرى لماذا وجف قلبى أأشفقت أن يكون قد أصابه مس من الجن ، أم لأنى خشيت أن يدلى إلىّ بأسرار مزلزلة فقلت له

متلعثماً : — أخبرني أنا أيضاً ، إنني صديقك ، وإنني لا أزال ، كما تعهدني ، متعطشاً للعلم .

أمسك بيدي وأجلسني بجواره ثم التفت وقال يكاد يهمس في أذني :

— إذاً هيىء نفسك لما سأقول : إن الإنسان استطاع بعقله أن يقيس الأرض ، ويزنها ، وأن يعرف بُعد الشمس ودورانها ، وحساب الأفلاك كلها ، واستطاع أن يتغلب على العناصر ، ويمازج بينها ، ويفك عقال ما تخبئه من قوى جبارة . ولكنه يضرب في الجبل ، ويهبط إلى الوادي ، ويقف أمام البحر ، ويناجي النجوم ، ويتأمل الزهر ويهتز لمطلع الفجر ، وينقبض للغروب ، وهو في كل هذا لا يظفر من الطبيعة بكلمة واحدة أو إشارة عابرة تدل على أنها تحس بأنه هنا ! إن حديثه مع الطبيعة منولوج — من جانب واحد ، هو ممثل في مسرح ليس فيه فرد متفرج ! كان ينبغي له أزاء هذا الصمم أن يقنع بأنه كالنمل والنحل وسائر الحيوان والنبات — بل والجماد — مخلوقات متساوية . تظهر وتختفي ، ويختلط بعضها ببعض في عجينة واحدة ولكن كيف يقنع الإنسان بالأمحاء ، وقد أتى بالمعجزات ونفذ إلى الأسرار ؟ لا ترضى كبرياؤه إلا أن يجد من الطبيعة رداً على كلامه يشعره بمقامه وهو ظالم في التجني عليها لأنه في — حماقته — قد قصر نظرته على الحياة وحدها ، فهناك لحظة ، لحظة هائلة ، تهب فيها الطبيعة في أتم قوتها وعنفوانها ، وتصيخ للإنسان ، وتفهم نجواه ووجيعته ، فتفتح له ذراعيها وتضمه لصدرها ، وتغمره بقبلاتها ، شأن الأم الرؤوم التي لا ولد لها غيره ، هي لحظة الدفن ! انظر إلى هذا البشر الذي يسير أمامك ، إنهم حين

يموتون يعاد من جديد وزنهم ، فهذا الأكرش العملاق أتناوله بين يدى فإذا بى أحمل جسم طفل صغير ، رقيق العظام ، ضامر اللحم ، رخص الأطراف ، وهذا القزم النحيل أحمله فلا أقوى على السير واتعثر به على سلم القبر ، إنه أصبح كرة ضخمة ثقيلة ، إذا مخضتها حركتى أحسست بأنى أحمل على يدى البحر المحيط كله بهديره وأملاحه وعواصفه . ولكنهم كلهم سواء فى اسراع الخطو ، هم الذين يدفعوننى ويسوقوننى دفعا وسوقا ، اسمع صرخاتهم جميعا : اسلمنى للأرض ، اسلمنى للأرض ، فإذا وسدتهم التراب كانت لحظة أرى الأرض تهتز وتموج ، سرت فيها رعشة المشتاق حين يضم حبيبه ! عين تكاد تنخلع من فرط اللهفة ، وفم جف يوشك أن ينشق من شدة الوله ، تعال ، تعال ، إننى أنتظرك منذ الأزل ! وأحس بجثة الميت تئن بالحنين ونشوة المتعة ، وتهبط السكينة على الأرض ، ويطبق إطمئنان الوسن جفنيها ، قد تندى فمها ووطبت شفتاها . وعرفت الجثة معنى الأمن والدعة والراحة والنجاة . سيذوب كل منهما فى ضمة الآخر حتى لا أدرى هل الأرض بقية من هذه الجثة ، أم الجثة بقية من تراب !

ولكن أصبر معى ولا تتعجل ، لقد أدركت من طول خبرتى للمقابر أن فى هذه الضمة هى أيضا ، سابقا ومسبوقا ، فإن الأرض فى براءتها التى فطرها الله عليها يوم الخليقة تفتح للجثة صدرها كله ، وأقصى مدى لذراعيها ، وتنسى أن الإنسان قد اكتسب فى الدنيا طبائع مستجدة ، لم تكن فى فطرته ، هى أقوى من غرائزه مستعصية ، من الصعب قهرها ، فالميت لا يستسلم لضمة امة الأرض

إلا شيئا فشيئا ، أول مايزول عنه من هذه الطبائع هو الحقد وحب الإنتقام ، ثم الطمع ، ثم الندم ، وآخر مايفارقه هو الكبرياء ، وهي تزول بعد أربعين يوما ، حين تنخفس عظمة الأنف ، عندئذ وعندئذ حسب تفنى شخصيته ويتم اللقاء بين الجثة والأرض ، وتتابع فناء هذه الطبائع يسمع له صوت كالنشيش ، وبعضها يتطاير كالهوام ، وبعضها يدب كالدود ، وبعضها يتبدد فى أبخرة وغازات عفنة . وتنهد صاحب الخان ثم صمت ، بعد أن كاد صوته يصبح فحيحا .

إننى من المؤمنين بأن للعلم ، وأن خرجت شبكته بما تكره كما خرجت من قبل بما تحب ، نشوة القوة وبهجتها ، فما بال صاحب الخان وهو يعتز بعلمه يكاد يتفطر قلبه من الحزن ؟

تركته هو أيضا لخالقه ، وهممت أن أقوم ولكنه أمسك يدى وأجلسنى من جديد بجانبه ، وقال وهو يشيح بوجهه عنى :

— شيء واحد لم أحسب حسابه ، يوم أن ماتت زوجتى إذ كان علىّ أنا أن أدفنها . .

وخيم علينا الصمت وغاب كل منا عن دنياه ، ثم انتبهت والشمس فى أوج السماء ، فقمت دون أن أنبس ببنت شفة وعدت إلى دارى ، ولذ لى ذلك اليوم أن أقلب أوراقى القديمة وأقرأ الرسائل التى بعث بها إلىّ أصدقاء أعزاء خلال ثلاثين سنة . وهممت أن اكتب لواحد منهم رسالة أضمنها وصيتى ، وماينبغى ان يفعله بأوراقى بعد مماتى ، ولكنى عدلت عن ذلك كله وشغلت نفسى بقراءات لاعلاقة لها ببلدنا واهلنا وزماننا ، ولم الكتمان ؟ نعم قرأت كتابا مطولا عن الخفافيش وطبائعهم ، احببت ان يعود إلىّ هدوء النفس من قبل ان اخرج للجولة التى اضاعها علىّ صاحب الخان بحديثه .

(٥)

إنى لا أكاد أصدق عينى ، لقد دبّت فى قريتنا حياة جديدة . كان أهلها من قبل مستغرقين فى نوم عميق ، ألفوا فيه الاستكانة والتوكل وقبول الضيم ، كلما تململوا رأوا القيد يزداد انطباقا عليهم . فوقر فى نفوسهم من فعل اليأس أن لا خير يرجى لهم ، بل ثبت لديهم - وهذا هو البلاء الأعظم - أن لا خير يرجى منهم ، فلما لم يبق لهم هدف ، وضاعت ثقتهم فى أنفسهم وافتقدوا من يقيم العدل بينهم ، مالوا إلى النهب ، شأن الجماعات المضطهدة المرهقة حين يختل الأمن ، وأصبح حلالا نهب أموال الجماعة ، حتى حفظتها ، أن أمسك بعضهم بقية من ضمير عن نهبها تهللت وجوههم بنشوة الاقتصاص إذا تركوا بإهمالهم يد التلف والخراب تعيث فيها ، وكم من مرة رأيت عاملا يتلف أدواته صائحاً « فلتحترق ، ولينحرق البلد كله » ومن لم يصل إلى أموال الجماعة ، نهب مال من هو أضعف منه ولم يكن دفاعهم عن أموالهم من النهب على يد من هو أقوى منهم حمية وأنفة وعصيانا ، بل بالتدليس والتزوير والكذب والحلفان بالباطل ، ومما زاد النكبة أن المال وقد اضطرب تداوله وأصبح فريسة مطاردة تتناهشها الكلاب ، أخذ يقل فى يد الناس شيئا فشيئا ، فعمت الفاقة ، وبعد أن كان على الجنيهات نزاعهم ، أصبح على القروش ، ثم على الملاليم .

وقد شعرت وأنا أجول فى القرية ودساكرها أن الناس قد

انتبهوا من نومهم ، أيقظهم تولى الأستاذ مقاليد الأمور فى القرية وإقامته للقانون بين الناس سواسية ولما لمسوه فيه من إخلاص وسعى للخير وانطباق العمل على النية ، أيقظهم أن الجبل الذى كان جاثماً على صدورهم قد انزاح فجأة ؛ كما تنفجر الفقاعة .

لا أزعم أن القرية أصبحت تعيش فى رغد وسلام ، بل يكفى أن الناس جميعاً أصبحوا يدركون أن هذا عهد جديد ، له مقاييس وأحكام ، لا يغتفر فيها النهب ، ولا ينجو المذنب بغير عقاب وحبل الفساد غير ممدود ، وقد كان قلبى يتفطر على كثير من خيرة الناس ، مالوا للباطل ، لا خبثاً من أنفسهم بل لانسياقهم كالعميان لما خدعهم ، من شيوعه وسلطانه ، فقد ارتد هؤلاء النفر إلى الرشد بغير تململ أو مشقة ، وكيف لا أغتبط لهم وقد أتيحت لهم النجاة ، وسلم لهم معدنهم الطيب ، وعفا الله عما سلف .

ولكن وقع اليقظة على بعض النفوس يجىء أحيانا كوقع المفاجأة ، وليس أشق على نفس الذى ألف الاستعباد من أن توهب له الحرية فجأة أو تلقى على كتفيه لأول مرة مسئولية تدبير أموره ، ويقال له أنت سيد نفسك ، دافع عن حقك ، وقم بواجبك ، انه كان يطالب بهذه الحقوق ، يؤمن أن كل بلائه راجع لحرمانه منها ، ويقول إنها لو ردت إليه لتغير حاله فى غمضة طرف ، من الظلام إلى النور ، فإذا واجه النور حين يعم عشيت عيناه .

فقد وجدت من أهل قريتنا من يحمد العهد الجديد ، ولكنه يلبسه كما يلبس ثوبا قشيبا لم تحرك بعد خشخشته ، ولا تلين بداخله حركات ذراعيه وساقيه ، فهو يمشى ولكنه يتعثر ، ويبتهج بما فاز

ويضيق بجدته وقد يقارن أيضا بين قصور حركته فى الثوب القشيب، وبين الراحة الموهومة فى الثوب القديم الممزق الذى خلعه وكان يكرهه أشد الكره .

لم أعجب حين وجدت هذه المعانى لا يوحى بها إلىّ رجل متعلم، بل فلاح كادح ، فالفلاحون هم الذين فاقت قفزتهم من أسفل إلى أعلى قفزة غيرهم ، وكثير من هذا الغير قفز من أعلى إلى أسفل . . لقيت هذا الفلاح عند الساقية فأسرع ودعانى لمشاركته طعامه (ما أجمل كرم أهل بلدنا !) ولكنه لم يكد يستريح لى حتى بدأ يقول :—

— إن مالك الأرض - لعنه الله - قد كف يده عن مساعدتى منذ تطبيق قانون الإيجارات الجديد « كأنه يتعمد أذيتى ، أو أن يثبت لى أننى لولاه خائب لا أفلح . . فقد تسلمت هذه الأرض بالإيجار الجديد ولكن أين البذور والسماد وهذا المال القليل الذى لابد منه لجنى المحصول ؟ أصبحت ينبغى علىّ أن أسعى لتوفير هذا كله ، وإننى أجده ولكن بعد سعى ومشقة ، كنت لا أعرفهما من قبل . إذ كان المالك يتولى هذا العمل . هل سمعت ؟ أن بعض الفلاحين آثروا الاتفاق سرا مع الملاك من وراء ظهر المجلس على زرع الأرض بالإيجار القديم المرتفع ، طمعاً منهم فى نزع الأرض من يد منافسيهم ، ولأنهم يضمنون مساعدة المالك .

فملأنى الغيظ ، ولكننى كتمته وقلت له : —

— يا أخى ، أيرضيك أنت هذا ؟ يعطى لك جوهرة فترميها بيديك فى الوحل ؟ أنتم أكثر الناس انتفاعا بخيرات العهد الجديد ، كل فلاح الآن سلطان نفسه ، فليكن على الأقل رجلا يعرف

كيف يدبر أموره بحكمة وعقل ، لاتنكربه مشقة أو جهد ، أم تريدون أن تعيشوا عيالا فى الذل ، عيالا فى الحرية ؟

ولما فرغ الفلاح من شكايته الأولى ، أعقبها بأخرى ، وقال :ـ

ـــ ومتى ننعم بالرخاء الموعود ؟ حتى آكل مثل الحكام لحما كل يوم لا مرة كل أسبوعين ؟

فأجبته وأنا أهم بالقيام :ـ هذه مسألة فى يدك ، والدنيا أمامك ـــ حين تحسن زرع الأرض ، فيجود محصولها ، وتحسن زرع الخضر والفاكهة ، وتربية الدواجن ، والنحل ، وتحسن نسج الصوف ، فليت كان سؤالك إذاً ، متى اتعلم مثلهم ؟

وأخذت أفكر وأنا عائد لدارى فى أعوان الأستاذ الذين التفوا به يوم أن ألقى خطبته الأولى ، أغلب أعضاء المجلس القروى منهم ، كلهم من الشبان كنا نراهم من قبل فلانظن أنهم على شىء ، أو أنهم قادرون على النهوض بعبء كبير يحتاج إلى سلامة الجسم والعقل معا ، ولعل بعض الشيوخ ممن يعتزون بتجربتهم كانوا لا يأبهون بهم فلما برزوا رأيناهم قد صمدوا للعبء ، وبذلوا من الجهد ماتنوء به الجبال لم يطلبوا مغنما لأنفسهم ، بل جزاؤهم أنهم يخدمون عشيرتهم ماوسعتهم الطاقة ، لقد مر بقريتنا عهود متتالية لا يدير أمورها إلا الشيوخ ، فكنا نسير على مهل ، مؤثرين الراحة ، وترك القديم على قدمه ، برامجنا كلها تطور بطىء ، إذ كنا نخشى الطفرة ـ ولا جرم أنه من الخير أن يتولى أمر القريه زمرة من الشبان ، حتى يكسبوا لنا ماضاع من الوقت ، وحتى يهدوا ويبنوا .

وعدت إلى دارى متعبا ، ولكنى فرضت على نفسى أن أخرج مبكرا فى الغد لأدور على أصدقائى ، وقد رابنى أن أحداً منهم لم يأت لزيارتى .

(٦)

لم أتعب فى البحث عن القزم ، فما كدت أخرج من دارى مبكراً وأسير خطوتين حتى رأيته قادماً صوبى ، يمشى بخطوة نشطة فلما انتهينا من السلامات والعناق قلت له : —

— أين تذهب فى هذه الساعة ؟ كان العهد بك أنك لاتخرج لعملك إلا عند اقتراب الظهر .

— كان هذا من قبل ، أما اليوم فإنى أحرص على أن أخرج من دارى فى الصباح المبكر

— وهل هذا سر تورد خديك ؟

— أهم سبب أن المولى تاب علىّ ولم أذق الخمر منذ إغلاق الحان

دققت النظر إليه ، فوجدته فى ثيابه القديمة التى أعرفها ـ بل رأيت حلته لامعة ، وقميصه ممزقاً مرفوفاً ، وحذاءه باليا .

— أين الأناقة ؟ كنا نراك كل يوم فى حلة جديدة ، وربطة عنق غير التى تلبسها بالأمس .

— إننى الآن مشغول بما هو أهم ، أنظر ، سأشرح لك الأمر

وأخرج من جيبه ورقة وقلما ورسم لى عليها موقع أرضه وسط جيرانه وقال : —

— أنظر ، هذه هى الأرض التى أملكها ، هل ترى بعدها عن المصرف ، هذا هو سبب رداءة تربتها وقلة غلتها . وهذه الأرض التى تفصلنى عن المصرف ، واقفة لى كالعظمة فى الزور ، كانت فى

الأصل من أملاكنا ، فأضاعها آباؤنا بحماقتهم وسفاهتهم وكانت أرضنا مربعة الشكل ، هى خير أراضى القرية فأنا الآن لا أفكر إلا فى استرداد هذه الأرض ، وأن أرى أرضنا عادت مربعة كما كانت . . كأن الجزء الناقص مقطوع من قلبى . . إذا عادت لى سأكون أسعد خلق الله . ومن أجل ذلك قررت ـ أنا وزوجى ـ أن نوفر كل قرش وكل مليم لشراء هذه الأرض .

إننى لم أنتبه لحماقتى إلا أخيرا ، كنت لا أفرق بين الجنيه والقرش ، يدى مخروقه ، يسيب منها المال مهما كثر ، بعثرت شمالا ويمينا ، كالمعتوه المأفون ، والمال نعمة ، ينبغى أن تصونها وتعرف قدرها والمال الذى يصرف عبثا ضاع منك إلى الأبد ، ولا يغنى به من أخذه ، لأنه جاءه بغير جهد ولا مشقة ، فكما جاءه طائرا يفارقه طائرا ، فما انتفعت ولا نفعت ، انت لا تدرك مبلغ لذتى حين أمد يدى فى جيبى فاجد النقود فيه ، وأحس بها تزداد يوما بعد يوم .

— وزوجك ؟ ماخبرها ؟ وماذا تفعل بفقرائها وأيتامها

— لقد أنتهى بيننا منذ إغلاق الخان ، كل نزاع وخــلاف . وتوحدت أهدافنا وخططنا . . وهى الآن تضع كل إيرادها فى صندوق لا يخرج منه قرش واحد .

إن الإحسان بئر عميق لا يعرف له قرار ، ما الفائدة من أن تعين إنسانا اليوم بقرش أو حتى بجنيه فماذا يكون شأنه غدا ؟ هل تصرف عليه طول العمر ؟ وإذا وجد محسنا غيرك فى غد فلماذا لا تتركه له اليوم ، ما الفائدة من مساعدة واحد أو أثنين ، أو حتى عشرة أو عشرين ، وهناك آلاف غيرهم من البؤساء . فما معنى أن

تساعد انسانا وتحرم آخر . . هل أنت مقسم الأرزاق ؟ ولو طال الحال بزوجى لافتقرت هى ولم يغن من مالها أحد ، كفاها ما فعلت هى أيضا من تبديد مالها ، تحسب بذلك إنها تردنى إلى الرشد ، وها قد عاد إلىّ صوابى بفضل إغلاق الحان والحمد لله . .

لقد طردنا الخادم وأصبحت زوجى هى التى تطبخ وتغسل وتكنس ، فلم يبق لها وقت للخروج من الدار ، وهى لا تغضب إذا لم يزرنا أحد من أصدقائنا ومعارفنا . قد أوصدنا الباب علينا ، ونحن نعيش سعداء ارتقابا لليوم الذى نحلم به ، يوم تربيع الأرض.

ومد يده ليصافحنى ، يريد الإنطلاق لعمله ، ولكنه لم يفارقنى إلا بعد أن قال لى :

ــ هل معك لفافة تبغ لى ؟ إننى نسيت بسبب اسراعى أن اشترى حاجتى اليوم

(٧)

أصاب المجلس القروى عصفورين بحجر واحد، فمن المبادىء التى التزمها وصلح عليها حالنا بعد فساده وضع الرجل فى المنصب الذى يليق له. ولكن من الذى يقرر لياقته لهذا المنصب ولياقة المنصب له. ليس هذا الرجل ذاته، فهو آخر من يصلح لإصدار حكم فى قضيته. وقديما قالوا أعرف نفسك، لا يسألون بها تحقيق ما يطلبون، بل هو التدليل بأبلغ مثال على عجائب النفس البشرية التى تضمها بين جنبيك ويستعصى عليك فهمها — وعلى الشيء يبدو سهلا يسيرا وهو فى الحقيقة شاق بعيد المنال. فليس هناك شيء أبعد عن طاقة الإنسان من أن يعرف نفسه والرجل ليس الرجل كما يرى نفسه، بل الرجل كما يراه الناس، فإذا انطبق أحد الرجلين على الآخر كانت السعادة للأنوف والمهانة للذليل، أما إذا افترق أحد الرجلين عن الآخر، فهو العذاب، يزداد بازدياد الشقة بين الرجلين، للطامع بحق وهى الخفلة للطامع بغير حق، والتلذذ بالخديعة والهزء بالناس للمحتال الآفاق الذى يصونه ذكاؤه من عمى البصيرة. فكان من الخير أن لا يأبه المجلس القروى فى شغل المناصب إلا برأيه هو، فأن هذا أدعى إلى إيجاد مستوى متسق للموظفين، بعد أن كان فى الماضى مضطربا بين الغلو فى الارتفاع والغلو فى الهبوط. قد يقال أن المجلس — وهو بشر — يصيب أحيانا ويخطىء أخرى ولكنه أثبت أنه يعدل عن

خطئه حين يتبين له ، ويجرب مرة وأخرى إلى أن يظفر بحاجته .

والمبدأ الثانى ، أن البطالة خلل فى كيان المجتمع — ينبغى أن يقضى عليه — أيا كانت الوسيلة .

فلما اتسعت أعمال المجلس القروى ، كان لا مفرّ له من مخزن كبير ، تودع فيه الأدوات ومواد البناء ، وتبيت فيه عربات الكنس والرش والمخزن مطلوب له أمين يتولى أموره ، فهذا عمل يحتاج إلى رجل له خبرة فى النجارة والسباكة والبرادة فإذا أضفت إلى ذلك أن زوج العرجاء عاطل تبيّنت لماذا اختاره المجلس ليكون أمين المخزن .

علمت هذا عند عودتى للقرية فسعيت إلى زوج العرجاء فى مكان عمله . فرأيته جالسا فى ركن من مخزن عميق مظلم مزدحم أمام مكتب عليه أوراق وملفات تكاد تبلغ سقفه الواطىء ، ورأيته هو أيضا يرتدى بذلة صفراء فوق قميص له ربطة عنق كذيل الفأر .

سألته أولا عن زوجه فأجابنى وهو يضحك .

— إنها بخير ، وهى دائمة السؤال عنك ، ولا تزال تعمل كما تعهدها ، ولكن قصادها أصبحوا من العُمال ، فقد كثروا الآن فى قريتنا ، وهى بهذا التحول أسعد وأهنأ لانها كما تعلم تحب الفقراء أمثالنا ، لسذاجتهم وطيبتهم ، ولأنهم أكثر من غيرهم نسلا ، فهى تحب أن تأتيها امرأة وورءاها ثلاثة أولاد . وهى تضحك معهم كثيرا

ثم استأذننى لحظة وتناول دفترا كبيرا وفتحه ليقيد فيه خروج عربة يد ، وأخذ يسألنى وهو لا يدير نحوى رأسه ولا ينتظر منى جوابا : هل كان البحر هائجا أم ساكنا ، وهل رأيت أنواعا غريبة

من السمك ؟ لقد وضع المجلس القروى لهذا المخزن ، نظاما دقيقا فإنه لو لم يفعل لأختل أمره وأضطرب ، وأصبحنا لاندرى مابقى وماتلف وماخرج ومادخل ، والطيور ؟ أى الأنواع رأيتها؟ أنظر إلى هذه الاستمارات هى مُعدة لأن يقيد فيها كل شاردة وواردة ، هل الحقول هناك أجمل من حقولنا كما يقولون . فإذا جئت صباحا قمت بجرد المخزن وأثبت محتوياته فى هذا الدفتر، فإذا ظهر عجز حررت استمارة من هذا النوع ، وإذا ظهرت زيادة حررت بها استمارة من ذلك النوع . وهذا الدفتر أقيد فيه أسماء العمال وساعة حضورهم وساعة انصرافهم للعمل وعودتهم منه. وهذا لإثبات حال العربات وإذا علمت أننى مكلف ايضا بتصليح هذه العربات وترميمها ادركت كم ساعة اشتغل، من الصباح للمساء . ولكنى أحمد الله ، وأريد أن أكون جديراً بثقة المجلس القروى ، وأن ابيض وجهه ووجهى ، لقد طال عبثى فى الماضى ، وآن لى ان اعمل بجد كما يعمل كل الناس اليوم .

— وماذا تفعل يوم الجمعة ؟

— اقضيه فى الفراش ، لاستجم .

ولما صافحته وانا اهمّ بالإنصراف، وجدت يده هى هى ، قطعة من قلبه ، وعينه هى هى ، صفاء واشراقا .

(٨)

تجمعت عندى من هنا وهناك منذ عودتى للقرية أنباء القصاب وما جرى له بعد سفرى ، فعلمت أن كثيرا من الشكاوى الغفل من الإمضاء قدمت فى حقه إلى المجلس القروى ، وقد صحب إنشاء المجلس ازدهار هذه الشكاوى من مجهولين ، وهى تمثل تبخر القوى المدمرة الكامنة فى بعض النفوس . وقد حار المجلس لا يدرى ماذا يفعل فيها . لو صرف وقته لتحقيقها كلها لما فرغ لعمل آخر ، ولو أهملها لقيل أنه قعد عن رفع المظالم ، ورضى أن يظل المجرمون مطلق السراح ، ولو بحث بعضها دون بعض لاتهم بالتحيز . وكلف المجلس بعض أعضائه للنظر فى هذه الشكاوى ، فتبين لهم كذب أكثرها ، وضاعت الشكاوى المقدمة ضد القصاب فى هذا السيل المنهمر ولم يسأله أحد عن شىء ، ولكن الناس لم يتركوه ، بل كانوا يطوفون بداره ودكانه ، ويشيرون إليه بالسبابة ، وهو صابر لا يفعل شيئا ، وسمع ذات يوم أنهم ضربوا صبي الطحان حتى كاد يتلف .

وانخطف لون السمراء وهزل بدنها . وكانت تأوى إلى ركن من حجرتها ، جاثية على ركبتها ، مطأطئة الرأس ، طول النهار ، لا تنقطع عن التفكير . ماذا فعلت بنفسها ؟ وماذا فعلت بزوجها ؟ وماذا فعلت بصبي الطحان . كل هذا بسببها هى . كيف الخلاص وماذا تفعل ؟ إنها لن تستطيع أن تخرج للطريق بعد ذلك ، إذاً لم يبق أمامها إلا الهرب مرة أخرى ، ولكن ماذا تفعل بأولادها .

وقامت من فراشها ذات ليلة واتجهت إلى فراش أولادها، وقبلتهم واحدا واحدا ، وجمعت فى ربطة بعض ثيابهم اللصيقة بلحمهم ، ثم فتحت الباب وخرجت إلى الليل . . .

وفى الصباح علت القرية نبأ هروبها مع صبي الطحان ، وأنها تركت أولادها للقصاب ، فقال بعض الناس : عادت ريمة لعادتها القديمة وقال آخرون : سحقالها ، إنها كشواذ الطير تبيض فى أعشاش غيرها اتضحى بأولادها من أجل هواها ؟ ولكنهم لم يروها وهى تقبل أولادها ، ولم يروها وهى لاتأكل فى تجوالها مع صبي الطحان سعيا للرزق من بلد إلى بلد لقمة دون أن تبللها بدموعها ، ولم يدهش أبناء القرية حين رأوا القصاب يسكت عنهم ، ويطيل تردده على المسجد لا يترك فرضا .

ولم أشأ أن أقابله فى دكانه ، وفضلت أن انتظره على باب المسجد حتى رأيته خارجاً ، قد أضاء وجهه واستراحت قسماته ، فتقدمت إليه ، وسلمت عليه ، فوضع ذراعه فى ذراعى وقال : تعال نسر معا على شاطيء الترعة .

ولما سرنا قليلا أنشأ يقول :

عجبت لرجل يترك الهم ينخر قلبه ، والحزن يضنى فؤاده ، وشهوة الانتقام تقض مضاجعه ، وباب الصلاة مفتوح أمامه ، لقد كدت أتلف من شدة الغيظ ، لولا أن هدانى الله ، وحبب إلىّ الصلاة ، وهى كل مابقى لى الآن . . . فإنى لا أذكر أيام الحان إلا اعترانى الخجل ، وحمدت الله على إغلاقها .

وقد شعرت أول الأمر بشد وجذب بين الصلاة وسموم النفس

فكنت أنتزع بجهد عسير من الغيوم المحيطة بى لحظات مشرقة أقف فيها أصلى ، حتى إذا فرغت صلاتى أطبقت علىّ الغيوم من جديد ، إلى أن يحين موعد الصلاة التالية ، وهكذا . وكنت أتمتم بالآيات كالببغاء ، لا يكاد يبين لفظى ، تنكشف أمامى معانيها دون أن تصل إلى ذهنى وقلبى ، ولكن صبرت وثابرت ، وأخذت أتلو الآيات على مهل ، راشفا معناها ، فتنزل على قلبى بردا وسلاما واتسعت اللحظات المشرقة وتضاءلت معها سموم النفس شيئا فشيئا ، فقد كنت أحمل نفسى قسرا فى لحظات الصلاة ، على الرضا بحكم الله ، والتوكل عليه ، والالتجاء إليه ، والاستعاذة به ، فتقنع نفسى ، أو تبدو لى قانعة ، ثم يتبخر كل هذا فور أن أخرج للناس واضطرب بينهم . ولكن الإيمان مع الصبر رسخ فى قلبى قليلا قليلا ، وأصبح يومى كله صلاة صامتة ، تقطعها صلوات ناطقة يراها الناس ، فأنا الآن هادىء النفس ، والحمد لله ، مطمئن الضمير ، وأصبحت أجد لذة لم أعهدها من قبل فى طعامى وشرابى ، إننى الآن كقطعة من المغناطيس الذى لا يلقط من الناس إلا معدنهم الطيب أما الخبث فهى عنه مزورّة ؛ وقد رأيت الكثيرين لا ينفعهم إيمانهم حين يعاملون الناس فيظنون فيهم الشر بادىء ذى بدء ، أو إن رأوا فيهم شرا وخيرا غلب الشر على عيونهم أو بقيت ذكراه فى مؤخرة رؤسهم وهم يعاملون الجانب الطيب من الناس ، فلا تزال قلوبهم منقبضة ؛ والقول بين بين ، لا هو خداع ولا هو صدق . إذا لم يأتوا بمعصية فما كسبوا ثوابا ، وكان إيمانهم كالتميمة ، توضع على القلب ، وهى ليست منه ، ولكنى استطعت أن أغمض عينى عن الشرور جميعها ، وحبست

نفسى فى دائرة الخير ، فوجدت فيها ، وإن قلَّ مداها ، سعة تنيلنى كل ما أريد ، ولا يفوتنى شىء أتأسى عليه . ولو أصاخ صاحب الخان سمعه حين يحملنى بين يديه لعجب لتهللى وتسبيحى . . عُد بنا فقد حان موعـــد الصلاة .

تركت على باب المسجد ، وسرت إلى الدار ، وأنا أتطلع تارة للناس وتارة للسماء .

(٩)

كنت أحسب أنني لا أجد الفتى الفنان فى القرية عند عودتى إليها . وظننته قد سافر للعاصمة هربا من وجه أبيه كما قال لنا ذات يوم فى الحان ، ولكن لم أعجب حين علمت أنه لم يبارح القرية فقد مضى عهد انشغال الفرد بنفسه ، فنحن الآن فى عهد مصلحة المجتمع قبل مصلحة الفرد .

لقيته فى متجر أبيه ، ووجدته جالساً على مقعد قد أحنى ظهره ليصل وجهه إلى وجه صبي فى السنة الأولى من العمر ، واقف أمامه وهو يلاعبه ، ويضع فى فمه قطعة من الحلوى ، لحظة ثم يخطفها ثم يضعها فى فمه من جديد ، وهو يضحك ملء شدقيه . ويندلق على وجه البشر والسعادة والمرح ، خلت أنني أرى عصفوراً يزق أفراخه وهو مشهد أحب أن أراه ، وأن أتأمل منقار الأم - ضئيل بالنسبة لجسمها - يندس برفق ، على غلظه ، فى منقار طالب منشق ، يبدو كأنه أكبر من منقارها ، إذا قيس إلى جسم الفرخ ، فإذا رأيته هذا المشهد لا أنساه سريعاً . فلما وجدنى الفتى أمامه هب واقفاً ورحب بى وقال : —

— أقدم لك ولى العهد ! رزقنى الله به منذ سنة ، فأصبح هو كل دنياى . لو رأيت ابتسامته وسمعت ضحكه وعجيب نطقه ومنطقه لقضيت معه النهار بأكمله وأنت لا تسأم ولا تمل . ولو رأيته أيضاً كيف فرح أبى به ، أصر يوم مولده على أن يضيف اسمى

وراء اسمه على لافتة المتجر ، ولعلك رأيتها وأنت قادم ، وإنى أرى من وراء الغيب اسم ابنى هذا يجىء وراء اسمى ذات يوم .

أتعرف ! أن الانسان لايحس بوجوده إلا إذا رُزق الولد، إنه من قبل كالمطر ينحدر على التلول ويتفرق فى الوديان ولا تعلو قامته فى مكان رغم غزارته ، ثم انظر إلى الولد حين يعانق أباه تجد ذراعيه كالضفتين تحتجزان هذا الماء المضاع فيصبح نهرا له حياة معلومة ومجرى وسوم ومبدأ وغاية

فقلت له بصوت خافت ، وأنا لا أسامح نفسى :—

— والموسيقى ! والحانك ؟

فأجابنى بعينين ضاحكتين

— لقد فتح لى العهد الجديد فى القرية آفاقا أخرى وهدانى للواجب والصواب إذ وجدتنى ذات يوم أقول لنفسى : أنت أسير الموسيقى فلماذا لا تكسر القيد ، وتجعلها أسيرتك ؟ إنك صريع قوة طاغية تنهش قلبك كالعقاب ، ولا تدرى كيف ينتهى بك الحال ولو سرت فى هذا الدرب إلى غايته للحقت بزمرة الموسيقيين الذين تنتهى حياتهم بالانتحار أو الجنون . فأحسست عندئذ أنى كنت أسير على غير هدى ، حتى وقفت على حافة الهاوية ، ورددت نفسى . أما اليوم فأنا غاوٍ ، كل موسيقىّ يعزف لى ، أختار ما أشاء ، حين أشاء . لا عذاب ، ولا جرى المخبول وراء لحن لم يولد ، ليلة إثر ليلة ، لا يغمض لى فيها جفن ، ولا ينقطع تجوالى فى الطرقات والحقول والحانات . أصبحت الآن أنا السيد لا المسود ، كنت أعيش فى الموسيقى ونفسى كالبحر الخضم الثائر ، أما الآن فأنا

أعيش فى الموسيقى ونفسى كالبحيرة الهادئة ، ولعلّ رضائى بأن أكون غاوياً هو الذى مهد لى السبيل للتقرب من ملحنين كنت أتحاشاهم خشية أن أقع تحت تأثيرهم وأتهم بتقليدهم ، وملحنين آخرين كنت أزورّ عنهم وأحذفهم ـ بالغرور ـ من قائمة الفنانين لأنهم من غير مذهبي ، أما الآن فكلهم أصدقائى ، فى كل منهم ناحية من جمال ، ولكن هل تريد أن تعرف ألذ نغمة عندى ، هى ضحكة ابنى وأنا أوقظه فى الصباح وأقبله وأزغزغه .

تركته وأنا أقول : هؤلاء الفنانون ! إن الحياة تبتسم لهم دائماً على أى جنب رقدوا ، لأن الفن هو قبل كل شيء عنوان غنى النفس ، واتصالها الوثيق بالكون والحياة . ولكن لن يخفف من حسرة عارفيه على فقدان هذا البلبل الصداح أن يعلموا أنه نجا بنفسه ، فجمهور الفنان لا يعنى إلا بإنتاجه ، يطلب المزيد والمزيد منه ، ولا يهمه هل تحطمت نفسه أم لم تتحطم .

(١٠)

لما عدت إلى داري وجدت رسالة من الأستاذ يدعوني فيها لزيارته في ساعة معينة من الغد ، فحمدت الله أن مقابلتي له ستتم تلبية لطلبه لأنني آنف أن أندس وسط المتزاحمين على بابه ولو كان قصدي أن أسلم عليه بعد عودتي من السفر الطويل ، وقد يحسبني الناس أنني أتملقه ، وليس لي مطلب عنده .

ولم أستطع أن أمنع نفسي من معاناة الحيرة في فهم سبب دعوته لي ، وكان أقرب الاحتمالات إلى ذهني أنه يريد أن يسألني عن مشاهداتي في رحلتي الأخيرة .

ودخلت عليه فوجدت بعض أعوانه يحيطون به إحاطة القيد بالمعصم . يعرضون عليه في إهتمام بالغ أوراقا كثيرة . فأشار لي أن أنتظر قليلا حتى يفرغ منهم . أكثر هذه الأوراق يتعلق بمسائل ليست بذات خطر ، وكان ينبغي أن لا تصل إلى الأستاذ فيضيع في معالجتها وقته وذخر أعصابه وذهنه وتذكرت كيف أنه جعل من ضمن برامجه حين بدأ عهده في القرية أن يختار لكل عمل من يصلح له ، فيوليه ثقته ويحمله مسئولية إنجاز هذا العمل على خير وجه دون حاجة للرجوع إليه . فما الذي جرى بين الأمس واليوم ؟

وشغلت نفسي بالتطلع إلى الأستاذ وتأملت ابتسامته التي لا تفارقه كعهدي به ، لقد كانت من قبل وليدة العزم على الصمود للجهد الجبار والأعباء الجسام ، هي سفير قلب كل مطمعه أن يهب نفسه ، أما اليوم

فقد خالى لى أنها أصبحت مظهر فهم عميق للناس ومنازعهم وأهوائهم وأطماعهم، هي وليدة انتباه لهذا الخط الدقيق — يكاد لا يرى — يفصل بين الخير والشر ، فلا عجب أن خالط هذه الابتسامة شيء من المرارة. ورأيت عينيه تبتسمان مثل فمه ، ومن تحت الابتسامة شيء من الملل كأنه يفهم حديث كل قادم من قبل أن ينطق به ، ومع ذلك ففرض عليه أن ينصت له من أوله لآخره انصات المفاجأ به .

وجمع الأعوان أوراقهم وهموا بالخروج فإذا بالباب يُفتح ويعلن علينا أن وفدا من أهالى القرية قد جاءوا لمقابلة الأستاذ ، وأن لهذا الوفد رئيسا هو الذى جمعهم وساقهم . ودخل الرئيس يخب فى ثوبه المقلم بالأحمر والأخضر كريش الديك . هل عرفته ؟ إنه واعظ القرية ، وسلم وحيا ، وتقدم وتخلف ، وانحنى وقام ثم صف الوفد من خلفه بحركات سريعة مطاعة من كفه فتقدم الأهم على المهم ، وتنحنح وقال بصوت جهورى مخاطبا الأستاذ ، ملتفتا إلينا جميعا . .

« نعم العمل عملك. هكذا تكون الحكمة والسياسة وبُعد النظر كأنك ترى من وراء الغيب ! وأن هذه القرية لم تُسعد إلا فى عهدك الزاهر ، فأنت الذى تدرأ عنها الأخطار والمتاعب ، عهدك كله خير وبركة ، لا حرمنا الله منك ، أننا لولاك لا نساوى شيئا ، أدعو الله فى كل ركعة أن يطيل عمرك ويوطد مجدك »

وأحسن الاستاذ استقبال الوفد ، وشكرهم وهو يحدق فى وجه كل واحد منهم كأنما يحدثه من أعماق قلبه ويريد أن يوقظ فيه نائما وأجاب على خطبة الواعظ بكلمة قال فيها أن كل شيء سيرتد للفساد

إذا لم يحسن كل منهم الانتفاع بالإصلاحات التي تمت في القرية والدفاع عنها كأنه هو بالذات صانعها والمنتفع بها .

وانصرف الوفد وعاد الأستاذ إلى مقعده واستدار نحوي وإن رأيت نظرته تتخطاني كأنها تنظر من ورائي إلى شيء بعيد ، ومع أنني كنت قد عقدت العزم على أن لا أبدأه الكلام وأن أنتظر فأرى ما سيقوله لي إلا أنني وجدت نفسي بالرغم مني أقول له :

— والغيظ هو الذي حلّ عقدة لساني — يخيل إليّ أنني سمعت من قبل كلاما لا يماثل فحسب بل يطابق ما سمعته اليوم كلمة كلمة ، ويخيل إليّ أيضاً أن قائله هو الواعظ نفسه وأنه قاله في مدح عهد ولى وانقضى . .

فافتر ثغر الأستاذ عن ابتسامة متهللة وقال :—

— أتحسبني مغفلا ؟ أتظن أنني آكل من هذا الهراء . نعم إنني أعلم أن الواعظ قال مثل هذا الكلام لمن سبقني . وليس هو وحده بل غيره كثيرون .

— ولماذا تسكت عنهم ، فيظن بعض الناس أن هذا الكلام ينطلي عليك .

— إنني لا أحب أن أغش الناس أو أخدعهم . فقد أصل بعد مشقة إلى القضاء على التملق الناطق ولكن كيف يشعر الناس بأنني سأظل مع ذلك محاطا بأنواع لا حصر لها من التملق الصامت . . أهل الخبرة الذين لا يفصحون بآرائهم خشية أغضابي متملقون ، ومن يشد على يدي كأنه يقول لي : أنت بطل ويمكنك الاعتماد عليّ ، متملق ، ومن يقذف في وجهي في كل مناسبة بأنه لا يتملقني

متملق . . فالمسألة كما أصورها النفسى، هى هل كلام الواعظ وأمثاله يؤثر فىّ أم لا يؤثر . وهل يجعلنى أعدل عن قرار اتخذته أم أن أحابى إنساناً على حساب إنسان ! كلا ! فصمودى أمام هذا النفاق هو العلاج العملى الوحيد فى نظرى لإسقاط قيمته بين الناس . .

ثم صمت الاستاذ قليلا وقال لى وهو يبتسم :—

— وأنت ؟ قد بلغنى خبر جولاتك فى القرية ودساكرها وحديثك مع الكناس وجندى المطافى، والفلاح وأصدقائك السابقين من رواد الحان بل بلغنى أيضا أنك تكتب مذكرات ، وقد اطلعت على بعض نصوصها . .

لاشك إننى فوجئت بهذا الكلام وجرت كيف أقول ، لقد كنت متردداً بين العجب كيف وصلت انباء كل حركاتى للاستاذ، بل كيف وصلت إلية أوراقى ، وبين الشعور بالضيق حين وجدت نفسى فجأة مكشوف الستر بعد أن كنت أحسب أنى اسير فى الدنيا فى مأمن من الرقباء .

ولزمت الصمت برهة ثم قلت له بهدوء : —

— لاأظن أن الحقيقة قد بلغتك بغير زيادة وتهويل وتحريف ولكنى واثق أنك لسابق علمك بأسرار أخرى ، وكثرة معاناتك لأمثال هذه التبليغات قد استخلصت لنفسك الصدق والصواب والنفع من وسط قشور الكذب والضلال والغثاثة .

— ماذا ؟ تحسبنى كنت لا أعلم ماسيقوله لك هؤلاء الناس ولا بما سيحدث لإصدقائك روّاد الحان ؛ أصبح لكل إنسان رأى وهذا خير وان حسبه الغافل بلبلة ، ونحن نفتح صفحة جديدة ،

ولا نرفع الصفحة السابقة بخطفة واحدة فليس هذا مما تحتمله دنيانا. فلا مفر من أن يسقط شيء من ظل الصفحة السابقة على الصفحة الجديدة . ولكن سيأتى وقت قريب تنقشع فيه كل الظلال، تحسبنى لم اتألم لما حدث لبعض الناس من جراء تنفيذ برامجى ! إذاً أنت لا تعرفنى ! ولكننى لا أعامل الأفراد ، بل أهل القرية كلهم ، وقد يسقط بعض الأشخاص صرعى عن شمال وعن يمين ولو وقفت أرثى لهم لما سار الركب أبدا . . ثم انتظر ، أن الحياة عجلة لاتنى عن الدوران ، وستعود فتلقط هؤلاء الساقطين على هيئة جديدة كما شاهدت أنت بنفسك . فماذا تريدنى أن أفعل . وكيف تختم مذكراتك ؟

كان قلبه هو الذى يتكلم ، الصراحة رائده ، والحق مطلبه ، فوجدت الحجرة كلها كأنما انعزلت عن ضوضاء العالم وارتفعت بنا عن الأرض لنعيش فى سماء ذات أضواء مشعشعة صافية. انفك عقال لسانى ووجدتنى أقول له بصوت هامس . وأنا أعجب كيف يصدر منى هذا الكلام بغير عناء مرتبا كأنما انطوت عليه نفسى زمنا طويلا على غير علم منى ، فلما آن الآوان نطقت الشفتان :

— سأقول لك كلاما لعلك تدهش له وتعجب . ان محبتى للقرية هى التى جعلتنى لاانقطع من التفكير فيك لحظة واحدة لا بليل او بنهار ، ان اخبارك لم تصلنى كلها ، وقد انقطعت عن القرية زمناطويلا، ولم اعد إليها إلامنذ قليل ولم اقابلك من سابق إلامرة واحدة — ومع ذلك فان نفسى تسجل كأبرة البوصلة كل هزاتك وتحولاتك ، ما اظن ان مرت بك مشقة او اجهدك ضيق إلا

أحسست به . . لقدجئت مفتح الذهن واليد والقلب ، حسبت قبل الاقدام فوجدت كل شيء سهلا ، ولكنك لم تكد تضع يدك فى العمل حتى رأيت مسائل القرية كمنازلها متساندة وكلها متداعية ، إذا سقط منها واحد تساقطت جميعا من ورائه ، فضربت ضربتك الأولى ، التى لم يكن منها مفر والتى كسبت من أجلها الحمد بين الناس والثواب والعاقبة عند الله ، سارعت فحجزت بين ذراعيك أقصى ما تستطيع لتحميه من التداعى وراء أكبر نصب يسقط ، وكان يحز فى نفسك أن من حول ذراعيك مسافة أخرى تساقطت معالمها هى ايضا ولعلّ بعضها كان يمكن إصلاحه ولعلّ بعضها كان ينفعك ولكن لم يكن مفر من أن تتركهم يتساقطون لأنك فى حاجة إلى الحيز الذى خلفوه لتعيد من جديد ترتيب ماضمته ذراعاك فى حرية وسعة ، وكان لابد لك أن تنسى الذى حدث لتفرغ لما هو قادم وإن تألمت من أن هذا النسيان قد يبدو لبعض الناس فى صورة القسوة وغلظ القلب . ثم لم تكد تبدأ فى علاج أول مسألة حتى رأيتها مرتبطة بأخرى ، وهذه بثالثة ، وتلك برابعه وهكذا . لو اقتصرت على علاج أولى المسائل لقيل إنك لم تفعل شيئا ، ولو عالجت المسائل جميعها لما استطعت أو قيل عنك انك تخدع الناس ، فحرت كيف تصل إلى الوسط بين الطرفين ورأيتك تتلمس طريقك ، وكان قلبي معك . وعلقت أملك على ان اثر الجهد المبذول نوعان : مباشر يقاس بقدر الجهد ، وثانيهما غير مباشر وزائد عن قدر الجهد ، يأتى من ان بجانب هذا الجهد جهودا اخرى مبذولة لامفر من ان تتفاعل فيما بينها ، فكما ان البناء يتداعى بعضه لبعض ، كذلك يقيم بعضه

بعضا ، وكلما زادت الآثار غير المباشرة استطعت ان تزيد من عدد المسائل التى تعالجها ولكن شرط هذا هو البناء على اساس متين ، والمثابرة وينبغى للمثابرة أن لا تختلط بالعناد أو آباء الرجوع عن الخطأ إذا تبيّن، عجزاً او كبرياءً ، وكنت ادعو الله ان يجنبك هذه الشبهات.

وراقبتك من بعيد وقلبى يخفق وانت تساق شيئا فشيئا إلى اغفال عزمك فى الابتعاد عن تولى المناصب ، فقد حكمت عليك الظروف وحرصك على الصالح العام ان تتولى الدفة بنفسك ، فتكسب الوقت . ولا يلتوى الطريق امامك ، وتظهر للناس سافرا فيزيد نجاحك من ثقتهم فيك . ودعوت الله ان يزيد من حلمك وصبرك بقدر ما زاد من مسئوليتك وانه يروض نفسك على قهر الغضب والامتعاض والألم كلما سمعت نقدا ليس من ورائه شهوة رخيصة .

ورأيت بعض أصدقائك المقربين ممن وثقت بهم كل الثقة قد حادوا عن طريقك فأقصيتهم عن الركب وكنت تحسب أن الاخلاص الذى ربط بينكم يقوى على غوائل الزمن والنفس وكنت أدعو الله أن يجنبك الشعور بالمرارة لتبقى نظرتك للناس أطهر ما تكون من الشوائب .

كل شخص جاءك إما يشكو من ظلم وقع عليه أو يشيد بمجهود بذله ، ودعوت الله أن لا يقلل هذا الضعف فيهم من تقديرك لكرامة الناس عامة .

ولكن لعل أكثر ما كان يشغلنى هو معاملتك للناس ، أردت أولا أن تسير إليهم وتلقاهم وتتركهم يحيطون بك ثم سرعان

ما تبينت أن النظرة القريبة غير صادقة ، وأن العدد تفصيل ، وأنت مشغول بالمبادىء والعموميات، وأن الوقت ثمين ينبغي أن يحتجز للتأمل والتدبر فإذا بك تقسر نفسك وهي غير راضية على أن تنخلع عن الناس فكأنما تقيم بينك وبينهم سدا لا يتجاوزونه حتى يسلم لك كيانك قوياً لا يضيع ولا يتبدد ، وكنت أدعو الله أن يخفف عنك آلام هذه الوحدة المفروضة التي ليس منها مفر .

ولم أسلم من الهواجس : ترى كيف وقع نكران الجميل على نفسه ؟ إنه خدم أناسا كثيرين ورد إليهم حقوقهم ، ورفعهم من ذل إلى كرامة فإذا بعضهم لا يقنع بما أصاب من خير ، ويطلب المزيد وبعضهم يظن أنه أقل من غيره انتفاعا ، فيغتم ويحسد ، بل منهم من نسي الحاضر سريعاً . ولم يجدوا جميعاً أحدا غيرك يحملونه مسئولية خيبة آمالهم الوضيعة .

والشعور بنكران الجميل ممن تحسن إليه سم تذوي عليه فضائل الروح ، ودعوت الله أن يهبك من الأناة والحكمة والرضى ترياقا يقيك هذا السم فلا يصدك عن شيء من خير أنت فاعله أن تمد لرجل يدك فيعضها .

وقلت آخر الأمر : عونك اللهم ! خذ بيده ! كانت نفسه من قبل خالصة له ، ربما عرفت لواذع الغضب والألم والحسرة والندم ولكنها كانت تجيئه موزعة من أفراد ، مثلمة الأطراف ، مخففة الوقع ، سريعة الزوال. ربما أمضّ روحه ما يرى وما يحس من المظالم التي تحيق بقومه ولكنه ألم المتفرج والمشاهد . أما اليوم فهو يعاني رد المظالم بيديه ، هو في صراع دائم مع قوى الشر ، تحاربه بكل

سلاح ، حتى سلاح النفاق ونكران الجميل . إن نفسه أصبحت كوعاء ينصب أبيه بقوة السيل تيار لا ينقطع من الهواجس والأحاديث والخواطر والتملل والعذاب . الجروح والندوب . هى قدر يفور على النار ، محكمة الغلق . لأن الافصاح دليل الضعف . فوداعا للتسلية والأغانى والأشعار ونزهة الغروب على ضفاف النهر ، بين أهله وأولاده وكنت أدعو الله أن تتسع نفسك كالبحر لا يعكر ماءه ما يلقى فيه من خبث .

وحمدت الله أنك لم تجعل لأحد أن يقول عنك . حرنا فى أمره ! إن له شخصيتين متناقضتين ، كما قالوا عن كثير من شواذ الحكام الذين فتحوا باب الرجاء لأهلهم فى مبدأ العهد بهم فلما دخلوه وجدوا من وراءه العذاب والشقاء ، ثم هلكوا حين غلب شرع الأصيل على خيرهم الزائف ، وحين انطفأ ذكاؤهم الخلب وبقيت حماقتهم وجهالتهم ، وهى — لطول الخفاء — أشد بشاعة من ذى قبل . . أما أنت فليس لك إلا شخصية واحدة ، باطنك ظاهرك ، فنجوت من العقد والتأويلات ، وأعفيت أهلك من الشكوك والمفاجآت ، ومع رائد مثلك يضمن السائر أن يصل إلى غايته وإن طال المدى .

وهنا استوقفنى الأستاذ وهو ينظر لساعته ويقول لى :—

— هل أتم أنا كلامك ؟ إننى أعرف بقية قولك لأننى قرأت مذكراتك . ستذكرنى — وهل أنا غافل ! — بالتسامح والانتباه لحقوق الفرد كإنسان حى قبل أن يكون حجراً مسخراً فى بناء المجتمع والتفريق بين إيمانك بأن رأيك صواب وبين إيمانك بأنه

كل الصواب وان الإخلاص وصواب الرأى تو أمان ولكنهما تو أمان غير ملتصقين

ونظر الأستاذ إلى ساعته مرة أخرى ، ثم بدا لى أنه نسينى ، ونسى كل ما حوله ، وغاب عن الوجود ، كأنما يستمع لأصوات بعيدة ، أو يجمع كل قواه استعداداً لحمل عبء ثقيل جديد . .

ولما عاد له انتباهه التفت إلىّ طويلا وخيل لى أنه ود لو استرسل معى فى الكلام وفتح لى مغاليق قلبه ولكنه لم يفعل بل واجهنى صامتا وهو يتأملنى مليا ثم وقف وقفة الجندى الصارم ومد لى يده قائلا : —

— إنى انتظر منك ان تقوم بواجبك

وها قد فعلت ! ؟





الثمن : ٦٠ قروش